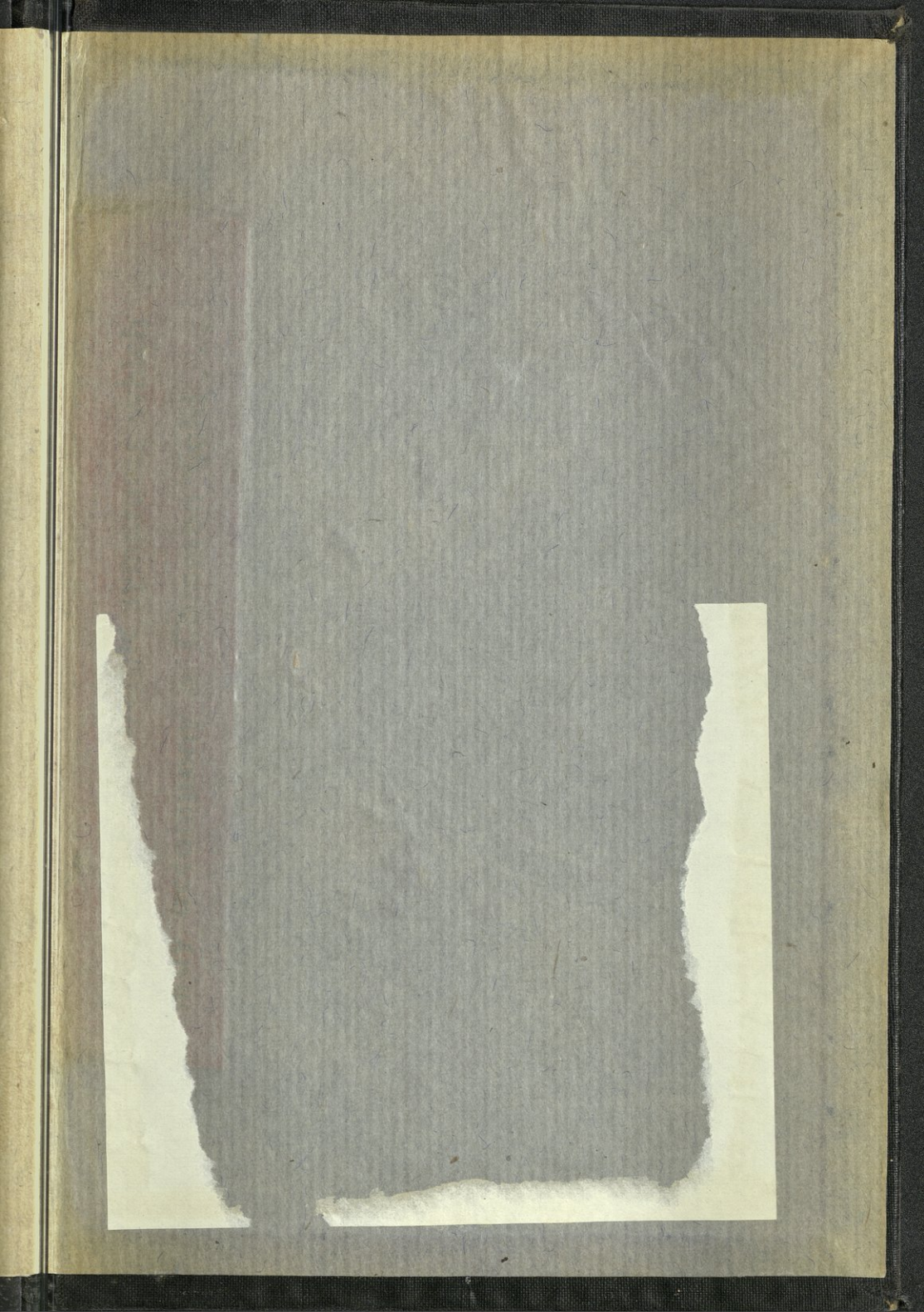










320.15

W45aA

C-1



ه.ج. ويلز

# عالم الغد

نقله إلى العربية

عبد الحميد يونس و حافظ حبال

cat. 8 May: 53



دار المعارف للطباعة والنشر بمصر



1875  
MAY  
10



1875



## مقدمة

هـ. ج. ويلز، أو "هربرت جورج ويلز" «أديب علمي» إذا صح هذا التعبير، ذلك لأنه استطاع في براعة منقطعة النظير حتى في قصصه الخيالي، أن يزواج بين مقتضيات العلم والفن جميعاً.

وقد عكف ويلز منذ نشبت الحرب الماضية على دراسة المشكلات الإنسانية بروح العالم وأسلوب الأديب، وكانت نظرته تنقسم بالشمول، فالحياة عنده وحدة لا تتجزأ، وإن تعددت صورها وتنوعت أشكالها، والإنسان جنس كسائر الأجناس، وإن تقدم عليها جميعاً حتى أصبح «تاج الخليقة» كما يقولون.

وأحس ما أصاب العالم من تفكك وانحلال، فأصدر عام ١٩٣٩ كتابه المشهور «مصير الإنسان» الذي أخذ يدرس فيه العضلات السياسية دراسة بيولوجية، وصح عنده أن الإنسان قد فقد الملاءمة بينه وبين بيئته، وإنه إذا لم يستعد هذه الملاءمة كان مصيره كمصير الزواحف العظيمة التي ظهرت ثم اختفت وتلك اللبونات المهولة التي لم يبق منها سوى هياكلها الدوارس؛ وأن العقل هو وسيلة الإنسان إلى التكيف مع البيئة المتجددة أبداً ينبغي أن يلجأ إليه وألا يلجأ إلى سواه.



ولما قدحت شرارة الحرب العالمية الثانية التي طالما حذر الإنسانية منها ، شجذ ذلك من عزمه وأعادته إلى التفكير في « المشكلة الإنسانية » فأصدر ، والمدافع تدوى في كل مكان ، كتابه الذي نقدمه اليوم إلى قراء العربية .

وقبل أن يمضى في رسم مقترحاته في تنظيم العالم ، رأى لزماً عليه أن يذكر المحاولات السياسية التي تنزع إلى حل مشكلة العيش أو مشكلة الحكم ونقدتها نقداً صريحاً صادقاً لا يستطيعه سواه . . . نقد الفاشية والديمقراطية ، بل وحتى الاشتراكية لأنها لم تبرا بعد من شوائب العصبية وأدران الشعوبية .

ولم يكن ويلز في هذا الكتاب مثالياً أو خيالياً أو صاحب « مدينة فاضلة » يبشر بها وإن كان كذلك في شبابه الأول ولكنه واقعي ينشد الكمال الممكن بالتطور المتنور لا بالطفرة الهوجاء .

وإذا كان ويلز من الدعاة إلى العالمية الذهنية ، مقدمة للعالمية المادية ، فإن النقاد السياسيين يرونه انجليزياً في نظراته ، وإن حاول أن يتحرر من انجليزيته ، أمريكياً في أهدافه ، وإن لم يسلم الأمريكيون من نقده المرير . ومذهبه في الجماعية العالمية إنما هو في واقع الأمر المذهب الاشتراكي وقد أخضع للعقلية الغربية المتحررة في نظره بل أخضع للعقلية الإنجليزية المترتبة المتدبرة التي تمتت التطرف والانقلاب .

وعلى الرغم من صدور هذا الكتاب إبان الحرب فلا يزال جديداً ،



ولا تزال الأفكار والمقترحات صالحة للبحث بله التطبيق ، ولعل خير وصف لآرائه التي بسطها في هذا الكتاب قوله :

” هذه شذرات مختصرة عن تلك الحياة الواسعة التي يستطيع النظام العالمى الجديد أن يفتحها للبشر . ولن أطيل التفكير فيها حتى لا يقال عن هذا الكتاب إنه ... خيالى ... إني لم أضع فيه شيئاً يجانب العقل أو يتعذر عند التطبيق ... “

وبديهي أننا باختيار هذا الكتاب ونقله ، لا نعى أننا نقول بكل ما قاله المؤلف ، وحسبنا أن نطلع قراء العربية على هذا المثال الفريد من الفكر السياسى فلعله يثير أذهانهم ويوسع آفاقهم ويرفع من مثلهم فى الحكم وفى الحياة ما

عبد الحميد بولس      حافظ جهول

القاهرة فى أول فبراير سنة ١٩٤٦





## فهرست

|     |     |     |     |     |     |     |     |     |     |                             |
|-----|-----|-----|-----|-----|-----|-----|-----|-----|-----|-----------------------------|
| ۳   | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | مقدمة                       |
| ۹   | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | خاتمة عهد                   |
| ۱۸  | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | مداولة عامة                 |
| ۲۷  | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | عوامل الهدم                 |
| ۳۴  | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | شباب طموح                   |
| ۴۵  | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | حرب الطبقات                 |
| ۵۷  | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | الاشتراكية لا مفر منها      |
| ۷۰  | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | الاتحاد                     |
| ۸۶  | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | الطراز الجديد من الثورة     |
| ۹۹  | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | السياسة للرجل العاقل        |
| ۱۱۲ | ..  | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | إعلان حقوق الإنسان          |
| ۱۲۰ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | السياسة الدولية             |
| ۱۳۲ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | نظام العالم في سبيل التكوين |

# فهرست

|    |                      |
|----|----------------------|
| ۱  | ..... فصل اول        |
| ۲  | ..... فصل دوم        |
| ۸  | ..... فصل سوم        |
| ۶۲ | ..... فصل چهارم      |
| ۶۳ | ..... فصل پنجم       |
| ۶۴ | ..... فصل ششم        |
| ۶۵ | ..... فصل هفتم       |
| ۶۶ | ..... فصل هشتم       |
| ۶۷ | ..... فصل نهم        |
| ۶۸ | ..... فصل دهم        |
| ۶۹ | ..... فصل یازدهم     |
| ۷۰ | ..... فصل بیستم      |
| ۷۱ | ..... فصل بیست و یکم |
| ۷۲ | ..... فصل بیست و دوم |



## خاتمة عهد

أريد في هذا الكتاب أن أبين في إيجاز ووضوح متوخيا الفائدة ما أمكن لب ما تفتته عن الحرب والسلم طوال حياتي . وليس في نيتي هنا أن أدعو إلى السلم ولكني سأضع أفكاراً وحقائق عامة لها خطرها وتكون نواة معرفة صالحة لمن يتابعون عملهم في إقامة سلام عالمي . ولست أريد أن أقنع الناس بتأييد سلام عالمي ، فحسبنا ما بذلناه في سبيل منع الحروب من إلقاء التصريحات وتوقيع القرارات فكل إنسان يرغب في السلام أو يزعم أنه يرغب فيه ، وليست هناك ثمة حاجة إلى أن نضيف حتى عبارة واحدة إلى هذا اللغو الكثير الذي لا خير فيه . وقصاراى أن أحاول هنا بيان ما يجب أن نفعله وما يجب أن نبذله في سبيل الحصول على سلام عالمي إذا صحت رغبتنا فيه .

ولم أكن أحفل كثيراً بالحرب والسلم حتى جاءت الحرب الكبرى أى الحرب العالمية الأولى . فبذ ذلك الحين وأنا أكاد أتخصص في هذه المسألة — وليس من اليسير أن يسترجع الإنسان ما يمر بعقله من حالات يتجاوزها يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة ولكني أذكر أنه في السنوات العشر التي سبقت عام ١٩١٤ كنت أعتقد ويعتقد معي معظم أبناء



الجيل — في الأمبراطورية البريطانية وأمريكا وفرنسا بل وفي العالم المتمدن بأسره — أن الحرب لا بد زائلة .

كذلك خيل إلينا . كانت فكرة محببة ومن ثم سارعنا إلى قبولها ، فتصورنا أن الحرب الألمانية الفرنسية عام ١٨٧٠ — ١٨٧١ والحرب الروسية التركية ١٨٧٧ — ١٨٧٨ كانت خاتمة المنازعات بين الدول العظمى وأن هناك توازناً دولياً مستقراً يتعذر معه نشوب حرب كبيرة أخرى . فقد وقف تحالف ثلاثي في وجه تحالف ثنائي ولم يكن لأحدهما ما يبرر مهاجمة الآخر واعتقدنا أن الحرب تنقصر فتصبح مجرد حملات على تخوم حضارتنا أو قل تصبح ضرباً من أعمال رجال الحدود .

وكانت تقوى بين الدول فيما يظهر أواصر الاتصال الودي — عاماً بعد عام — فظل السلام بينها لا يعكر صفوه معكر .

والواقع أنه قد كان هناك تسابق معتدل في التسليح . . . معتدل بالقياس إلى ما وصلت إليه معدتنا الحديثة . وكانت صناعة التسليح صناعة نامية ناشطة . ولكننا لم ندرك ما سيؤدي إليه ذلك على الوجه الصحيح . . . وكنا نميل إلى الاعتقاد بأن الجنوح العام إلى العقل سيقوى بحيث يمنع هذه المدافع المتكاثرة من الانفلاق والإصابة . وكنا نتبادى في الابتسام كلما نظرنا إلى الملابس العسكرية ، أو حضرنا استعراضاً أو مفارقة . . . كانت الأعياب يقدمها العصر وشارات ملوك وأباطرة . كانت ضرباً من ضروب الاستعراض لا تقوم في الواقع بقتل أو تخريب .



وتنطبق هذه الصورة تمام الانطباق بلا مبالغة على ما كان عليه الناس عام ١٨٩٥ أى منذ خمسة وأربعين عاماً من طمأنينة امتدت بمعظمنا إلى عام ١٩١٤ — وفي هذا العام لم يكن أحد دون الخمسين في بريطانيا وأمريكا قد رأى شيئاً من الحرب في بلده .

وكان العالم قبل عام ١٩٠٠ يسير بخطوات ثابتة في سبيل توحيد عملي هادىء — فقد كان الإنسان يستطيع أن ينتقل في معظم ربوع أوربا بغير جواز سفر . وأخذ اتحاد البريد ينقل رسائله في أمن ، دون أن يطلع عليها أحد من شميلي إلى بلاد الصين — أما النقد فيعتمد على قاعدة الذهب لا تتذبذب قيمته إلا قليلا ، وظلت الأمبراطورية البريطانية المتسعة الأطراف تحتفظ بسننها في حرية التجارة — والمساواة في المعاملة والترحيب بجميع الوافدين من أنحاء المعمورة ، أما في الولايات المتحدة فأنت تسير أياماً دون أن يطالعك رداء عسكري . فاذا وازنا هذا العهد بأيامنا هذه وجدناه ظاهر الأمر عهد يسر ودعة . وبخاصة عند الأوربيين وأهل أمريكا الشمالية .

غير أنه وراء صناعة التسليح النامية المطردة المذرة بالشر هذه كانت هناك عوامل أخرى أعمق تعمل عملها في إثارة الفتنة من مرقدها . ولم تنس وزارات الخارجية في مختلف الدول سنن التنافس التي شاعت في القرن الثامن عشر وكان القواد وأمرء البحر يفكرون وهم بين العداوة والحسد في أسلحة أشد فتكا فانسابت صناعة الصلب برفق بين أيديهم — ولم



يكن عند ألمانيا من الصناعة ما عند الناطقين بالإنجليزية — فطمحت إلى  
الجوزاء واشتد التنافس على تقسيم مواطن المواد الخام في أفريقية وشقي  
البريطانيون من فزعهم الدائم من روسيا لاتساع ممتلكاتهم في الشرق  
فراحوا يفنون اليابان ليجعلوا منها دولة إمبراطورية عصرية . وذكروا  
كذلك « ماچوبا » وانزعجت الولايات المتحدة من اختلال الأمن في  
كوبا ورأت الخير كله في تغيير دفة الحكم في الممتلكات الأسبانية الشاسعة  
الواهنة . . . وعلى هذا النحو صارت مبارات السياسة الدولية ولكنها  
كانت بعيدة عن السلام العام . وقد نشبت حروب وعدلت حدود بيد  
أنها لم تحدث إضطراباً أساسياً في الحياة المتحضرة العامة . ويبدو أنها لم  
تكن تهدد روح التسامح والتفاهم المتزايدين في أي مظهر أساسي . وأخذت  
الأزمات الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية تغلي مراجلها تحت سطح  
الحياة السياسية الهادئة . إلا أنها لم تكن تنذر باضطراب ما . وكانت تدور  
بالأذهان فكرة القضاء على الحرب أو تصفية الجو مما علق به من شوائبها  
بيد أن هذه الفكرة لم تكن ملحة — وأنشئت محكمة «الهاي» وتضاربت  
الآراء في التحكيم والقانون الدولي . وظن كثيرون أن شعوب الأرض  
استقرت في أوطانها وخضعت لنظام أدنى إلى السلم منه إلى الحرب . وإذا  
كانت هناك ألوان من الظلم الاجتماعي فأخلق لها أن تزول على الأيام  
بأذكاء روح التسامح .

وفي تلك الأيام ، ولعلنا لم نجاوزها بأكثر من نصف أعمارنا — لم



يخطر ببال أحد التفكير في إدارة عالمية . ولاح للجميع أن تمزيق العالم إلى دول كبيرة ودول صغيرة هو أحكم طريقة عملية في تدير شؤون الإنسان . وكانت المواصلات عسيرة يتعذر معها قيام لون من ألوان السلطان المركزي وقد رأى الناس في كتاب « حول العالم في ثمانين يوماً » عند صدره منذ سبعين سنة ، إسرافاً في الخيال العالمي ذلك أنه كان عالماً بلا مسرة أو مذياع — لم يكن فيه أسرع من قطار السكة الحديد ولا أشد فتكاً ، من قنبلة H.E. القديمة . وكانا في نظر الناس من الأعاجيب فما أيسر أن تدبر شؤون هذا العالم القائم على التوازن الدولي في أوطانه المنفصلة بعضها عن بعض ، وما دام الناس لا تنهياً لهم الأسباب الكافية ليجم بعضهم على بعض ويؤذى بعضهم البعض — فقد ظنوا أنه لا خطر من الوطنية المتأججة واستقلال الدول المنفصلة إستقلالاً تاماً .

وكانت الحياة الاقتصادية تدبر بوساطة أصحاب الأعمال الحرة وأصحاب الأموال غير المسؤولين وكانوا بمقتضى ملكياتهم الخاصة يستطيعون أن ينشروا معاملاتهم الخاصة الموحدة في شبكة لا تحتفل كثيراً بالحدود أو عواطف الوطنية والجنس والدين . وكانت « المعاملة » أدنى إلى حكومة عالمية منها إلى نظم سياسية . وتخيل كثيرون وبخاصة في أمريكا أن المعاملة قد توحد العالم بصفة نهائية بينما تقبع الحكومات في خضوعها لهذه المعاملات المتشابهة .

ونحن نستطيع في هذه الأيام أن نكون حكماء بعد أن وقعت الواقعة ،



وانستطيع كذلك أن نرى عوامل التخريب تستجمع من قوتها تحت  
السطح الهادئ . بيد أن هذه العوامل كانت قليلة الشأن في مجرى الحوادث  
منذ نصف قرن أى عند ما تكونت آراء الجيل الماضى التى لا زالت تسود  
الحياة السياسية — والتعاليم السياسية التى أخذها عنهم أخلافهم . وقد  
نشبت الصراع بين التوازن الدولى والأفكار الناشئة من المعاملة الخاصة  
التى عمرت نصف قرن من جانب و بين عوامل التخريب الآخذة فى النمو  
من جانب آخر . فخلت بنا كارثة من أفدح الكوارث وأدت هذه الأفكار  
مهمتها على خير وجه فى أيامها ، ولا يزال من الحتم على الحكام والعلمين  
والسياسيين عندنا أن يواجهوا الحاجة إلى تكييف آرائهم وأساليبهم ،  
وشروحهم بحيث تتناسب وهذه العوامل الخربة — التى أهمل شأنها فى  
يوم من الأيام والتى تعمل الآن على تقويض نظامهم القديم من أساسه .  
فمن أجل هذا الاعتقاد بزيادة حسن النية بين الأمم — ومن أجل  
الرضا الشامل بالأشياء كما هى — أثار إعلان الألمان للحرب عام ١٩١٤  
عاصفة من الإزدراء ، فى جميع أنحاء العالم المطمئن الوداع . فشعر الناس أن  
قيصر الألمان قد عكر صفو ندوة العالم بلا جدوى . ونشبت الحرب ضد  
« آل هوهنزولرن » فوجب أن يطردوا خارج الندوة وأن تدفع غرامات  
معينة فتعود المياه إلى مجاريها كان هذا هو رأى البريطانيين عام ١٩١٤ .  
وأن تسوى مسألة هذه الحروب التى نشبت فى غير أوانها تسوية نهائية  
بميثاق مشترك من الأعضاء الأكثر احتراماً عن طريق عصبة الأمم . ولم



يكن هناك ثمة إدراك للعوامل الفعالة في هذه الحروب من جانب ثقات السياسيين الذين وقعوا معاهدة الصلح . فكانت فرساي وملحقاتها .

وأخذت هذه العوامل الهدامة في النمو والتكاثر عشرين سنة تحت هذا الاستقرار الظاهري السطحي ولم يصمم أحد مدى عشرين سنة على مهاجمة هذه المشكلات التي تواجهها من جراء هذا النحو . وكانت عصبة الأمم طوال هذا العهد محظرة للفكر الحر في العالم .

فاليوم تنشب الحرب للتخلص من أدولف هتلر ، الذي حل محل آل هوهنزرن على المسرح فقد اعتدى هو الآخر على قانون الندوة ووجب أن يطرد منها . وتخوض الأمبراطورية البريطانية هذه الحرب ، ولنسمها حرب تشمبرلن هتلر — للأسباب نفسها التي خاضت من أجلها الحرب الماضية . ذلك أنها لم تعلم شيئاً ما ولم تنس شيئاً ما . ولا تزال مصرة على إغفال أى مشكلة أساسية .

أضف إلى ذلك أن عقول الطبقة الحاكمة النهائية ذات الحول والطول تأبى أن تسلم بالرأى القائل إن عهدهم قد مضى . وإن التوازن الدولي ووسائل المعاملة الحرة لا يمكن أن تستمر ، وإن هتلر — مثله مثل آل هوهنزرن — ما هو إلا قرحة مزعجة في وجه عالم ينفطر من الألم . ولن يكون الخلاص منه ومن حزبه النازي إلا أكثر من تدليك بشور الحصبة المندملة فإن المرض ستظهر أعراضه بغفورة أخرى . وإنما الذي يجب أن



يزول هو نظام الفردية الوطنية والمعاملة الغريبة الشاذة فهو آفة العالم .  
يجب أن يصلح من أساسه أو يستبدل بغيره .

وليس هناك من أمل في أن يتدخل هذا النظام السهل المبدد الخطير  
مرة أخرى فالسلم العالمى يعنى كل هذه الثورات التى تحدثنا عنها . وقد  
أخذ كثيرون منا يعتقدون أنه لا ينطبق على أقل من هذا المدلول .

ومن ثم فإن أول ما يجب أن نفعله لنكشف عن المشكلات الأساسية  
الخاصة بالسلام العالمى هو أن ندرك أننا نعيش فى خاتمة عهد محدد من  
عهود التاريخ هو عهد الدول ذوات السيادة أو كما كنا نقول فى العقد  
التاسع من القرن الماضى «إننا نعيش فى عصر انتقال» وقد لمسنا شيئاً من  
حدة هذا الانتقال . هو مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية قد تؤدى إلى ،  
كما أحاول أن أبين لك : إما إلى ابتكار وسيلة جديدة من وسائل العيش  
لجنسنا البشرى وإما إلى حقبة تطول أو تقصر يسودها الجور والبؤس  
والتخريب والموت وإبادة الجنس البشرى ولست أسوق هذه العبارات  
لأغراض بلاغية ولكنى أعنى ما أقول تماماً وهو فناء مشؤوم  
للجنس البشرى .

هذا هو الموقف الذى يواجهنا . وليس الذى نحن بسبيله هنا حديثاً  
تافهاً من اللغو السياسى . فى اللحظة التى أسطر فيها هذه الكلمات يقتل  
آلاف من الناس ويجرحون ويطاردون ويعذبون وتساء معاملتهم —  
ويدفع بهم إلى أقسى حالات القلق والانزعاج . ويحطمون معنوا وعقلياً



ولا يلوح الآن شيء في الأفق يوقف هذا التيار الجارف ويحول بينه وبين الوصول إليك وإلى عشيرتك . . . . . إنه يقترب منك ومن عشيرتك بخطى سريعة . وما دمنا كائنات عاقلة متبصرة فليس أمام أحد منا الآن إلا أن يوقف على مسألة السلام العالمي هذه اهتمامه وأن يكرس لها حياته فنحن إذا فررنا من مواجهتها فانها تقص أثرنا حتى تلحق بنا علينا إذن أن نواجهها وأن نحلها أو تقضى علينا . فهي مسألة ملحة لها خطرها .

## مداولة عامة

وقبل أن أمضى فى بحث ما أسميته العوامل الخربة فى النظام الاجتماعى الحاضر أرى من الواجب أن أبين ضرورة أساسية لكل بحث جرى حراً فى هذه النظم المسك بعضها بخناق بعض والسنن الآخذة فى التصدع التى نقضى بينها حياتنا المزعجة المضطربة . ويجب ألا يكون هناك نمة حماية للزعماء أو النظم من النقد المتفحص اللاذع متذرعين بأن وطننا يخوض أو سيخوض غمار حرب أو بأية ذريعة أخرى . فينبغى أن نتحدث فى صراحة وإسهاب ووضوح . فالحرب عارضة أما الحاجة إلى الإصلاح التورى فجوهرية . ولعل أحداً لا يدرك تمام الإدراك بعضاً من أهم المسائل الحيوية التى تواجهنا ، فليست عقولنا من الرجاحة بحيث تنجو من التخليط كما أن الشقشقة البارعة والروايات الناقصة غير المباشرة التى تعد بعد أن يطلع عليها رقيب ستشوش أفكارنا وأفكار أولئك الذين نريد التفاهم معهم ، مما يؤدى إلى إحمال كل محاولة إصلاحية وفشلها .

فنحن نريد أن نتحدث وأن نكشف حقيقة آرائنا ومشاعرنا لا إلى أبناء وطننا فحسب بل إلى الحلفاء والمحايدين وإلى القوم الذين شهروا السلاح فى وجوهنا بنوع خاص . ونحن نطمح فى أن يبادلونا إخلاصاً



بإخلاص ولن يكون السلم سوى توازن غير محقق تنمو فيه عداوات جديدة حتى نقوصل إلى وضع قاعدة مشتركة للآراء العامة ومن الجمع عليه أن هذه الحرب تحتاج إلى مناقشة واسعة النطاق فكل فرد في العالم يجب عليه أن يساهم في هذا البحث ما استطاع إليه سبيلا . فهي شيء أهم بكثير من الحرب الحقيقية . وبما لا يمكن السكوت عليه أن نفكر في هذه السكارثة العالمية التي لا تنتهى فنفط بعقد « مؤتمر » من السياسيين غير المتصلين بالعالم وجلسات سرية « وتفاهم » يشوبه اللبس والغموض . . .

الحق إن هذا لا يمكن أن يحدث مرتين . ولكن ترى ما الذى سيجول بينه وبين الحدوث مرة ثانية ؟ فمن السهل أن نبين الحدود المعقولة للرقابة في بلد محارب . ومن الجلى أن معلومات تفيد العدو فائدة ما يجب أن تراقب وأن تخمد بشدة . ولا يقتصر الأمر على المعلومات المباشرة مثلاً ، بل يتعداها إلى التلميح والإفشاء غير المقصود لمواقع السفن وحركاتها ، والجنود ، والمعسكرات ومخازن الذخيرة ، والبيانات السكاذبة عن الهزائم والانتصارات والنقص المتوقع أو المنتظر في الزاد والعتاد وما إلى ذلك مما يؤدي إلى إحداث الفرع الشامل والجنون وما إليه . بيد أن الأمر يختلف مظهره عن ذلك اختلافاً تاماً إذا كان المقصود منه البيانات والحقائق التي قد تؤثر في الرأي العام داخل الوطن وخارجه والتي قد تعيننا في الوصول إلى عمل سياسى صحيح سليم . ومن مظاهر الحرب البغيضة في هذه الظروف الحاضرة ظهور طائفة كبيرة من الناس جد بارعين ، لهم الحول



والطول ، منفعلين ، مغرورين ، متأهبين للكذب وتشويه الحقائق ، أو نصابين على وجه العموم يستحدثون حالات الرضا والقناعة والمقاومة والإزدراء وطلب الثأر والريبة والاضطراب الذهني ، أو بعبارة أخرى يستحدثون الحالات العقلية المؤدية إلى إحراز نصر نهائي . هؤلاء الناس مشغوفون بتحريف الوقائع وطبها ، لأن ذلك يكسبهم الشعور بالسلطان وهم إذا لم يستطيعوا الخلق فهم يستطيعون على الأقل المنع والإخفاء . وهم يحشرون أنفسهم في زمرة تافهة وبخاصة زمرة الذين نحاربهم ليفسدوا كل توفيق مستطاع . ويجلسون تملأهم نشوة السلطان العارض ، مترفعين عن متاعب النضال وأخطاره يضربون على أوتار خيالية في عقول الناس .

ويقال إن التفكير العام في المانيا خاضع لرقابة الدكتور جوبلز ، أما في بريطانيا العظمى فقد دعينا نحن معشر الكتاب لنضع أنفسنا تحت تصرف ما يسمى بوزارة الاستعلامات أو بعبارة أخرى تحت تصرف أفراد غامضين لا يمثلون سوى أنفسهم ونكتب بمشورتهم ويمثل موظفون من المجلس البريطاني ومن أقطاب حزب المحافظين أما كن الصدارة في وزارة الاستعلامات هذه . وهذه المؤسسة الصغيرة العجيبة القليلة الإعلان عن نفسها التي ذكرتها الآن وهي من إنشاء اللورد لويد كما أنبتت وأعنى بها المجلس البريطاني ، ترسل إلى الخارج بعوثا من النساء الأنيقات والكتاب وغيرهم من المثقفين ليحاضروا ويفتنوا ويستحوذوا على تقدير الأجانب للسمات البريطانية ، والمشاهد البريطانية والفضائل السياسية



البريطانية وهم جرا... ويعتقدون أن ذلك يحقق بوسيلة ما غرضاً ما .  
وقد سار هذا قدماً في غير جلبة أو مضايقة . ولعل هذا النموذج البريطاني  
يقدم ضمانات غير رسمية ومن المحتمل أيضاً أن يسبب ضرراً إيجابياً قليلاً .  
ولكن ينبغي ألا يستخدم هؤلاء الأفراد مطلقاً . فكل دعاية حكومية  
تتناقض روح الديمقراطية في أساسها . والتعبير عن الآراء والأفكار  
الجماعية يجب أن تكون خارج نطاق الحكومة تماماً ويجب أن تكون من  
عمل أفراد أحرار تعتمد كفاءتهم على مسابقة الرأي العام وتأييده . ولا بد  
لـي في هذا أن أصح رأيي في اللورد لويد فقد انسقت إلى الاعتقاد بأن  
المجلس البريطاني كان مسؤولاً عن المستر تيلنج مصنف كتاب محنة  
النصرانية وقد أفضت في التحدث عنه في كتابي مصير الإنسان وأنا الآن  
أسحب كلامي هذا فقد علمت أن المستر تيلنج قد أرسل في رحلاته بواسطة  
صحيفة كاثوليكية ، وأن المعهد البريطاني كان بريئاً منه براءة تامة وليس  
عمل وزارات الاستعلامات والدعاية هذه تحويل هؤلاء الكتاب  
والمحاضرين والمحدثين إلى إنتاج ذلك الهذر غير البارع الذي سيسبب  
عقل الجمهور ويضلل الأجنبي الطلعة ؟ بل إنها تنزع إلى خنق كل رأى  
حر مستقل قد يعترض خططهم السرية في إنقاذ العالم .

ومن العسير أن نحصل في أي مكان على الأذاعة الملائمة الواسعة لبحث  
جرىء في النظام الذي يسير عليه العالم والعوامل السياسية والاقتصادية  
والاجتماعية التي تدفعنا في تيارها . ولا يعود هذا إلى أعمال الإخاد



المتعمدة بقدر ما يعود إلى الفوضى العامة التي تردت فيها شؤون الإنسان نعم ، تكاد لا توجد في عالم الأطلنطى بادرة من بوادر هذا التجسس على الفكر التي تقضى قضاء تاماً على الحياة العقلية للرجل الذكى الإيطالى أو الألمانى أو الروسى فالفرد منا لا يزال يستطيع أن يفكر فيما يشاء ، وأن يجهر بما يشاء ، وأن يقول ما يشاء ولكن هناك على الرغم من ذلك صعوبة متزايدة في سبيل الحصول على آراء جريئة غير سلبية عن طريق السمع أو القراءة . والصحف تخشى أن توجه إليها أية تهمة مهما صغرت ، والناشرون مع استثناء بعض الأجرياء كفاشرى هذا الكتاب — مسرفون في الحذر ، وهم ينفذون بعدم الخوض في هذا الموضوع أو ذاك بنوع خاص . وهناك ألوان مبهمة من المصادرة ومصاعب تجارية تعوق انتشار الأفكار العامة إنتشاراً واسعاً بوسائل لا أعداد لها ولست أقصد بهذا وجود مؤامرة منظمة لإخماد البحث والمناقشة ، ولكن أقول إن الصحافة والمكتبات ودور النشر في بلادنا الآخذة بأسباب الحرية تقوم على نظام جد سقيم ، غير واف بالغرض في إنتاج الأفكار وتوزيعها

والناشرون لا يصدرن شيئاً إلا للربح المضمون ، وسيعجب منك الوراق إذا أنت أخبرته بأنه جزء من كيان العالم الثقافى لأن كل همهم أن يقيد في دفاتره أكبر عدد ممكن من طلبات خير البائعين وأن يربح عمولة لا يضارعه فيها أحد تاركاً وراءه كل ما عدا ذلك من المقاصد السامية . إنهم لا يدركون أن من الواجب عليهم أن يقدموا خدمة الجمهور على الربح



فما من باعث يدفعهم إلى هذا ولا هم يعتزون بكرامة عملهم ومنطقهم هو منطق دنيا الاستغلال والصحف مشغوفة بنشر مقالات جريئة في ظاهر أمرها عن التحرر التقليدي ، وطنية في الدعوة إلى السلام مسرفة في تنميق العبارات في وسائل تحقيقه ، والآن ونحن في حالة حرب فإنها ستنتشر أشنع الهجمات على العدو بحجة أن مثل هذه الهجمات تحافظ على روح الأمة المحاربة . ولكن كل فكرة ثورية واضحة عامة لا تجرؤ على إذاعتها مطلقاً . وفي هذه الظروف المعوقة لا توجد في موضع ما ، ثمة مناقشة صحيحة لمظهر العالم أياً كان . ولا تفضل الديمقراطيات الدكتاتوريات في هذه الناحية إلا قليلاً . ومن ثم فن الهذر أن نطلق عليها ربوع النور في محاربة الظلام .

وهذه المناظرة الخطرة في موضوع إعادة بناء عالم أحم وأجدي من الحرب نفسها ، ولا توجد وسائط وافية بالغرض للجهر بأى رأى سمح عام ونقده وتنقيحه . وهنا جمجمة بأفكار إنشائية لا غناء فيها ولا جدوى لها . ولكن هناك نزوعاً ضئيلاً إلى البحث المدعم ، واتصالات قليلة حققة ، وتقدماً غير واف ومن ثم فلم يقرر شيء ولم يرفض شيء لأنه فاسد ولم يكتسب شيء دائم ويبدو ألا أحد يستمع لما يقول غيره ذلك لأنه لا وجود لنزعة الاستماع لهؤلاء النظريين ، فلا يوجد مستمع له خطره يقول في شدة وعناد « إن ما قاله أ » يبدو مبهماً : وهل يستطيع ب ح بدلا من هذه الشبهة الفارغة أن يقول لنا بالضبط فيما يختلفان عن أ ولماذا ؟ هانحن



الآن قد توصلنا إلى الحقيقة المشتركة بين ا ب و ح د ه . وها هو ه  
يقول شيئاً . فهل يتكرم ببيان العلاقة بين ما يريد أن يقول وما قاله  
ا ب و ح د ه ؟ »

لكن ليس في الأفق بوادر على ظهور رأى عام عالمى قوى الملاحظة  
والنقد بل توجد قلة من الناس هنا وهناك تقرأ وتفكر في موضوعات  
متفرقة . وهذا هو كل ما يقوم به عالمنا من التفكير لمواجهة الكارثة  
الشاملة . أما الجامعات بآرك الله فيها ... فهي جامدة صامتة .

فنحن في حاجة إلى أن نخفف عن عقولنا ونحن في حاجة إلى مبادلات  
صريحة إذا أردنا أن نحصل على تفاهم عام . علينا أن نضع رأياً واضحاً لنظام  
العالم الذى نفضله على القوضى الحاضرة علينا أن نحل أو نوفق بين  
خلافاتنا حتى نولى وجوهنا في اطمئنان شطر سلام عالمى يمكن تحقيقه  
والجولى بمقترحات أنصاف الأذكاء — لا يصغى أحد إلى الآخر فيه  
ويحاول معظمهم وقد نفذ صبرهم ، إسكات الآخرين ، والآلاف من  
الأغبياء على استعداد لأن يصفوا لنا علاجاً كاملاً لمشكلاتنا العالمية . ولم  
يدرك الناس جهلهم وقصورهم اللذين نشأت منهما هذه الحاجة الملحة إلى  
أوضح بيان لماهية المشكلة ، ودراية متصلة شاملة للخلاف فى الرأى ،  
وبحث جدى لسكل احتمال من احتمالات الموقف مهما بدا لنا غير ملائم  
لأول وهلة .

ومن أجل هذا فأنا أجعل الحرية فى القول والجرأة فى النشر مقدمة على



أى شىء آخر عند البحث فى الوسائل المؤدية إلى السلام العالمى ، فهما خير ما نحارب فى سبيله ، وهما أساس كرامتك الشخصية . فإن واجبك الأول باعتبارك من أبناء هذا العالم أن تبذل قصارك فى سبيل تحقيقهما وليس عليك أن تقاوم الاضطهاد فحسب بل يجب عليك أن ترفع أستار الحماية أيضاً . وإذا ما وجدت السكتبى الذى تبتاع منه كتبك والصحفى الذى تستقى منه أخبارك يحجمان عن توزيع أى ضرب من النشرات ، حتى ولو كانت هذه النشرات تخالف رأيك مخالفة صريحة ، فينبغى أن تشهر سلاح المصادرة نفسه فى وجه هذا الخالف وتبحث عن كتبى آخر وصحفى آخر ، يقدم ما تريد قراءته . وعلى المواطن المرجو فى هذا العالم أن يساهم فى مؤسسة كالمجلس الوطنى للحريات المدنية ، وعليه أن يستغل كل وسيلة تتيحها له مكانته فى منع الجور على حرية القول ، وعليه أيضاً أن يعود نفسه الاعتراض على الترهات فى أدب مقرون بالحزم ، وأن يجهر فى وضوح بلا خوف أو وجل ، بكل ما يدور فى خلده ، وأن ينصت فى غير خوف أو وجل أيضاً إلى كل ما يلقى إليه ، ذلك لىكى يزداد علماً بالحقائق بفضل الاستيثاق منها أو تصحيحها . وأن يجتمع الإنسان بغيره للبحث والمناقشة والتفكير والتنظيم ، ومن ثم كانت الفريضة الأولى على الإنسان العاقل — هى الإفادة من موهبة التفكير .

إن علمنا هذا يسير إلى التهلكة . فمن الواجب أن يعاد بناؤه ، ولن تكون إعادة بنائه هذه مجدية إلا فى النور . وما ينقذنا إلا عقل نير حر



صريح . ومثل هذه المتاعب والعراقيل التي تقف في سبيل تفكيرنا في الإضرار كمثل غلمان يضعون العوائق في وجه القطار أو ينفثون المسامير في طريق سيارة

هذه المناظرة العالمية الخطيرة يجب أن تستمر ويجب أن تستمر الآن . فهذا هو وقت التفكير والمدافع تدوى . ومن الحماقة الكبرى أن نقول كما يقول كثير من الناس بوجود إنهاء الحرب أولاً ثم عقد « مؤتمر عالمي » للتبشير بوجه جديد فما أن تنتهي الحرب حتى ينتهي الجدل العالمي الحقيقي وتخمد المناقشة فسيجتمع الزعماء والساسة في جو مشبع بروح المناقشة ويوصدون الأبواب بينهم وبين العالم الخارجى ، ويعيدون تمثيل .. فرساي بينما يقف العالم الصامت مشدوها ينتظر ما تنكشف عنه أعاجيبهم .



## عوامل الهدم

ولنأخذ الآن في بحث عوامل الهدم التي نقلتها من الحلم الذي تراهي لنا في القرن التاسع عشر ممثلاً في صورة شبكة عالمية متينة من دول آخذة بأسباب الحضارة يجمعها تبادل اقتصادي ومالي يزيد على الأيام إلى يقظة تامة لا تتحقق فيها مثل هذه الأحلام ، ومن ثم كان لزوماً على كل رجل ذكي الفؤاد أن يضع خطة العالم كما ينبغي أن يكون . ومن الأهمية بمكان عظيم أن يعرف المرء ماهية عوامل الهدم هذه وألا يغفل عنها ، فإدراك هذه العوامل يضع يدك على متاعب العالم الحاضر . وإغفالها ولو إلى لحظة يسيرة يتجاوز بك الحقائق الجوهرية إلى الأعراض التافهة .

وأول طائفة من هذه العوامل التي درج الناس على التعبير عنها بـ « إلغاء المسافة » و « تبدل المقاييس » في أعمال الإنسان . وقد بدأ « إلغاء المسافة » هذا قبل أكثر من قرن . ولم تكن نتائجه الأولى هدامة على الإطلاق . فقد ربط بين أطراف الولايات المتحدة الأمريكية ، ولولا لورثت حبالها ، وتفككت أوصالها . وساعد الأمبراطورية البريطانية المتشعبة الأطراف على أن تنشر صلاتها حول الكرة الأرضية بأسرها . ولم يظهر الأثر الهدام لإلغاء المسافة إلا مؤخراً . فلنستوضح مدلوله الأساسي .



فقد كانت أسرع وسائل المواصلات في القرون المتباطئة وكأنها لا تنتهى .  
 هى الجواد يركض على الطريق العام ، والرجل العداء ، والمركب  
 الشراعى المتقلب ، تتحكم فيه الرياح وهناك الرجل الهولندى ينزلق  
 بزحافته على القنوات ، بيد أن هذا كان ضرباً شاذاً من السرعة لم يعم  
 استعماله . وتقيدت حياة البشر السياسية والاجتماعية والعاطفية فى هذه  
 القرون جميعاً بهذه الظروف ، فهى التى كانت تعين المسافات التى يمكن أن  
 ترسل إليها السلع ، وطاقة الحكم فى إنفاذ أوامره وإرسال جنده ، والقيود  
 المقامة فى سبيل استقاء الأخبار ، بل قل إنها تحدد جميع مرافق الحياة .  
 ومن النادر أن نجد جماعة حقيقة بهذا الاسم يعدو شعورها مجال صلاتها  
 العادية . وطبيعى أن تستقر الحياة الإنسانية فى بقاع من الأرض يتحكم  
 فيها تداخل هذه القيود والعوائق الطبيعية من جبال وبحار ، فأمم مثل فرنسا  
 وإنجلترا ومصر واليابان ظهرت ثم ظهرت مرة أخرى فى التاريخ كأشياء  
 طبيعية واجبة الوجود . وأما المحاولات السياسية الكبيرة كالإمبراطورية  
 الرومانية مثلاً ، فما استطاعت أن تحتفظ بوحدها ومثل الامبراطورية  
 الرومانية فى تماسكها كمثل قطعة مبللة من النشاف ، تنقسم عراها على  
 الدوام . وقد كانت الإمبراطوريات القديمة التى تجاوزت رقعتها حدود  
 أوطانها الأصلية ، عبارة عن دول مزعزعة الأركان كل مهمتها أن تأخذ  
 الجزية من غيرها . فما عبّرت عنه بشبكة الدول الصغيرة والكبيرة كان فى  
 الظروف القديمة التى ساد فيها الجواد والقدم والمركب الشراعى ضرورة



تحتّمها الطبيعة كحجوم الشجر والحيوان . وتغير هذا كله في مدى قرن واحد من الزمان ولا يزال علينا أن نواجه إلام يقصد بنا هذا الانقلاب ؛ جاء أولاً البخار ، فالقاطرة ، والباخرة ، ثم أقبلت في سرعة متزايدة آلة الاحتراق الداخلي والجذب الكهربائي والسيارة والطائرة ، ونقل القوى عن محطة مركزية ، والمسرة والمذياع . وأنا أستسمحك في سرد هذه القصة الشائعة فأنا أفعل ذلك لكي أؤكد لك القول بأن جميع البقاع التي كانت جد ملائمة وصالحة لوسائل العيش القديم التي كان يمجدها الناس أصبحت من الضيق والعسر ، بحيث لا تلائم حاجيات العصر الحديث . وهذا ينطبق على كل وحدة إدارية أيا كان نوعها ، من مجالس بلدية ومركزية ، وعلى مدى اتساع المعاملات ، إلى دول ذات سيادة . لقد كانت هذه الوحدات ، بل ولا تزال في معظمها صغيرة جداً بالنسبة لمتطلبات الحياة الجديدة . كما أنها جد متقاربة . وهذا الترابط والتضاغط في السكان الاجتماعي بأمره شيء ثقيل ، وهو إذا امتد إلى رقعة الدول ذات السيادة أصبح من الخطورة بمكان عظيم ، وأضحى أمراً لا يحتمل ولا يمكن أن تستمر الحياة الإنسانية وحواضر معظم الأمم المتحضرة في العالم على مسافة ساعة واحدة للمقتربات من حدودها التي وراءها الهجمات وتتخذ الاستعدادات السرية بلا رقابة ما . ومع هذا فنحن لا نزال على تسامحنا وولائنا لنظم تحاول المحافظة على هذه الحالة . وتعالجها كألا سبيل إلى غيرها .



وحتى هذه الحرب الحاضرة في سبيل هتلر وستالين ومستتر تشمبرلين  
أوضحهم لن تحل المشكلة الأساسية ، ألا وهي إلغاء المسافة . والواقع أنها قد  
تهدم كل شيء ولكنها لن تحل أي شيء . وإذا استطاع المرء أن يمحو كل  
أسباب النضال الحالي فلا يزال يواجهنا اللغز الأساسي وهو زوال الحدود  
التي تفصل بين معظم الدول ذوات السيادة واندماجها في حلف أعم .  
علينا أن نفعل ذلك إذا كنا ننشد حياة محتملة في صورة من صورها .  
فتوقيع المعاهدات وتبادل الضمانات لا يكفي ، وحسبنا في الواقع ما تعلمناه  
في النصف الأخير من القرن الماضي لكي ندرك صحة ما ذهبنا إليه من أجل  
إلغاء المسافة وحدها ، أن نجمع أزمة الأمور الإنسانية تحت رقابة جامعة  
مانعة للحروب ولكن إلغاء المسافة هذا ليس إلا مظهرًا قوياً من مظاهر  
التغيير في الحياة الإنسانية ، ويندمج فيه ذلك التغيير العام في مقياس  
الجهود الإنسانية ، فقد كانت المائة سنة الأخيرة عصر اختراع واكتشاف ،  
فاقت كل ما بذل في الثلاثة آلاف سنة التي سبقتها . وقد حاولت في  
كتاب أصدرته منذ ثمانية أعوام عنوانه « عمل البشر وثورتهم  
وسعادتهم » أن أخلص سيطرة الإنسان المضطربة على القوى والمواد . فإن  
مدينة حديثة مثل برمنجهام تنفق من القوى في اليوم الواحد أكثر مما  
كانت تحتاج إليه إنجلترا في عهد اليبابات لمدة عام كامل ؛ وفي الدبابة  
الواحدة من القوى الخربة أكثر مما كان يحتاج إليه جيش وليم الأول  
لغزو إنجلترا . والانسان الآن قادر على أن ينتج أو يدمر ما لا سبيل إلى



مقارنته بما كان يستطيعه قبل هذا السيل الجارف من المخترعات . وكانت النتيجة أن اضطرب الكيان الإجتماعى لأجداد أجدادنا . لم ينبج منه ضرب من ضروب العمل أو التجارة . فقد طعنت السنن والنظم الاجتماعية القديمة بما نسميه « طعنة نجلاء » وما من مهنة كصيد السمك والفلاحة والنسيج والصياغة والتعدين إلا وتأثرت بالتنقيح المستمر فى طرائقها لى تلائم مقتضيات الأساليب الحديثة وتخبط أوضاعنا فى التجارة تبعاً لهذه الانقلابات واختفت الحرف الدقيقة بانحلال الكيان الاجتماعى .

وقد أخذت النظم الجديدة الخاصة بالقوى تدمر الغابات بسرعة فائقة وتحول المسافات الكبيرة من الأرض الخضراء إلى صحارى ، وتستنفذ المواد المعدنية ، وتبيد الحيتان والفقم وكثيراً غيرها من أنواع الحيوان النادرة الجميلة ، وتقوض الجانب المعنوى لكل كيان اجتماعى وتحتاج المعمورة . وساعدت الفرص الجديدة على التوسع الهائل فى قوة التدمير بفضل أسس التملك الفردى للأراضى والموارد الطبيعية بوجه عام ، وكذلك بفضل العمل الخاص فى سبيل الربح الذى أدى إلى قيام حياة اجتماعية على شىء من التسامح و « التحضر » لجميع الناس اللهم إلا المعوزين فى أوربا وأمريكا والشرق لعدة قرون . فإن الباحث عن الربح الدئوب الصبور الناشط فى القديم قد علا الآن شأنه وزوّد بما أعده له تغير المقياس من مخالب وأسنان هائلة ، ففرق النظام الاقتصادى القديم شرمزق . ونحن إذا غضضنا النظر عن الحرب فإننا نجد أن أرضنا آخذة بأسباب الدمار والانحلال . ومع هذا



فإن الأمور تسير في مجراها من غير ضابط عام ، وهي أكثر تخريباً وأشدّ هولاً حتى من مفازع الحرب الحديثة وفضائنها .

ويجب أن نوضح الآن أن الحاجة الملحة إلى ضابط عالمي جماعي يمنع الحرب والحاجة الأقل ظهوراً من سابقتها إلى ضابط جماعي يدبر حياة البشر الاقتصادية والبيولوجية هما مظهران لشيء واحد ، وأهم هذين الأمرين هو الحرب أو لا حرب فأخطرها هذا الاضطراب المطرد في الحياة العادية . فقد نشأ الإثنان على السواء من إلغاء المسافة وتغيير المقياس . يؤثر أحدهما في الآخر ويفعل فيه ، وإذا نحن لم ندخل في حسابنا سيرها جنباً إلى جنب وتفاعلهما ، فإن كل مشروع يرمى إلى حلف عالمي أو ما يشبهه مقضى عليه بالفشل لا محالة .

وعلى هذه الصخرة تحطمت عصبة الأمم ؛ كانت هيئة فقهية وكانت هيئة سياسية . فقد اقترح نظامها أستاذ سابق من أساتذة التاريخ على النمط القديم يعاونه نفر من رجال السياسة . وقد أغفلت هذا الإنحلال الخطير في الحياة الإنسانية الذي أحدثته الثورات الآلية ، والتوسع في المعاملة والأساليب المالية المستحدثة وقتذاك ، ولم تكن الحرب الكبرى نفسها أكثر من نتيجة ثانوية لها . وقد أنشئت هذه العصبة وكأن شيئاً من ذلك لا وجود له . وما عاصفة الحرب الحالية التي تشور بنا الآن والتي ترجع إلى الإنحلال المستمر في نظم الحكم بين مجموعة متشابكة من الدول ، سوى مظهر واحد من مظاهر الحاجة العامة إلى توحيد الجهود الإنسانية توحيداً



يقوم على العقل ؛ وليست الدولة المستقلة المهددة أبداً بالحرب ، والمسلحة بالموارد الآلية الحديثة المفزعة ، إلا أهول مظهر لنفس هذه الحاجة إلى الضابط العام الذى يجعل المؤسسات الخاصة والشركات المتضخمة المستقلة - هدامة للكيمان الاجتماعى . وإذا لم يكن فى العالم مدفع أو أو بارجة أو دبابة أو رداء عسكرى لظللنا تحت رحمة جبارة « التجارة » « وطاعة المال » و لظلنا نباع ونجرد من أموالنا . ويجب علينا أن ندرك جيداً أن الحلف السياسى الذى لا يصحبه شيوع اقتصادى مقضى عليه بالفشل ولا ينطوى عمل واضع الهدنة الذى يرغب حقاً فى استقرار السلام فى عالم جديد ، على مجرد ثورة سياسية بل ينطوى أيضاً على ثورة اجتماعية عميقة بل لعلها أعمق من الثورة التى حاولها الشيوعيون فى روسيا . ولم تغفل الثورة الروسية بسبب تطرفها بل فشلت بسبب العنف وعدم الأناة والتعصب الذى صحبها ، وبسبب افتقار رجالها إلى بعد النظر والكفاية الذهنية . والثورة العالمية التى تنشذ شيوعية عامة . وهى الهدف الوحيد أمام البشرية مقابل الفوضى والانحطاط يجب أن تكون أكثر طموحاً من الثورة الروسية ؛ يجب أن تكون أحزم من ذلك وأقوى . ويحتاج تحقيقها إلى طعنة أقوى وأثبت . ولن نحظى فائدة ما من إنغماض أعيننا عن أهمية وضع السلام العالمى وعظمته . وهما العاملان الأساسيان فيما نحن بصدده .



## شباب طموح

وعلينا الآن أن نختبر عوامل الهدم هذه عن قرب . . . وهى العوامل التى تفت بشكل ظاهر فى عضد النظام السياسى والاجتماعى الذى نشأ فيه معظمنا وتقلبه رأساً على عقب فى أى الموضع الخاصة من حياتنا السياسية والاجتماعية تتلمس هذه العوامل الهدامة ومواطن الضعف ؟

وأهم هذه المواطن التى بدأت تتضح للناس أكثر فأكثر هى شيوع أنصاف المتعالمين . وكان من أخص نتائج الاندفاع فى استغلال القوة والاختراع فى عهدنا إهمال جانب عظيم من الجهد البشرى فى صورة الشباب المتعطل وهو عامل مهم من عوامل القلق السياسى العام .

ونحن نعترف بأن الإنسانية لا تشكو كما يفعل معظم أنواع الحيوان من الجوع أو الافتقار المادى بأية صورة من صوره . إنما يهددها الزيادة لا النقصان . فالتخمة سبب شقاءها . إنها لا تحتضر من الإجهاد الجثمانى ، ولكنها تمزق نفسها إربا .

وإذا قسنا الإنسانية بغير مقياس الرضى والطمأنينة القصوى ، وجدناها أغنى بكثير مما كانت عليه عام ١٩١٨ . فمقدار القوى والمواد التى تحت سلطانها المباشر ، أعظم بكثير . وإن ما نسميه بالقدرة على الإنتاج أكبر ، ولكن



لدينا من الأسباب ما يحملنا على القول بأن جانباً كبيراً من هذه القدرة المتزايدة على الإنتاج إنما هو استغلال أسرع وأشد لرأس مال لا يعوض . وهي حالة لا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية . وتبلغ غايتها القصوى ثم تزول ... والموارد الطبيعية تستنفذ بدرجة كبيرة والإنتاج المتزايد يحول إلى ذخائر الحرب ، وهدفها الهدم ، أو إلى جهود عقيمة — ليست خيراً من التفريط . والإنسان « وارث العصور » مبذر سفيه ، في حالة سل جارف يعيش على المنهات .

ونحن إذا تأملنا إحصائيات السكان لرأينا الدليل القاطع على أننا قد بلغنا النهاية القصوى في كل شيء ( أنظر في هذا الموضوع كتاب شفق الأبوة لايد شارلس The Twilight of Parenthood : Euclid Charles أو كتاب مقياس نمو السكان لـ ( دكتورنوسكي ) R. R. Kucggushi Measurements of Populatin Growth وأن الانحلال السريع محقق لا في غرب أوروبا وحده بل في العالم بأسره . وثمة سبب معقول يدعونا إلى الارتياح فيما زعمه البعض من أعداد الزيادة في السكان الروس . ( أنظر كتاب ستالين لمؤلفه سوفارين (Sauvarine) ومهما يكن من شيء فإن اضطراد التحسين في وسائل الإنتاج يبعث على مضاعفة الأثر الناتج عن هذا التعميل الجديد . والعالم في القرن العشرين يختلف تمام الاختلاف عن العالم الذي كان بالحيوان أشبه في القرن الثامن عشر فإنه عبارة عن بحر عجاج من شباب متبرم غير مطمئن وفتيات لم يعد همهن انجاب الأطفال



وفتيان لا يجدون متنفساً لحواضرهم الطبيعية ومطامحهم ، شباب متأهب  
للانتفاض إذا وجد الوسيلة إليه .

أما في الماضي — عهد الصناعات الساذجة . فقد كان الذين لا يملكون  
يكدون ويكلفون فوق طاقتهم . وكان من اليسير إيجاد عمل للجميع  
فيشتغلون به عما سواه ولم تعد هناك حاجة إلى هذه الجموع الزاخرة وأصبح  
العمل ولا سوق له ... والآلات أحسن أداء وأقل مقاومة .

وقد أخذت هذه الجموع الخذولة تشعر تماماً بخذلانها وأخذ ما يلزمها  
من نقص مفتعل في بعض أجزائه يتلاشى لأنهم اليوم يقرأون جميعاً . بل  
إنه في حالة العمل العارض كان من الواجب أن يعرفوا ذلك . حتى أصبح  
جمهور القارئ الجديد الذي وجد على هذا النحو قد ابتعث أو أناره  
إحياء . وتبهرهم السينما والراديو بمشاهد البذخ والحياة التي لا أحد لترفها .  
فلم يعودوا فلاحين علفين لا حول لهم كما كان حالهم منذ مائة سنة . فقد  
بلغوا من الثقافة المستوى الذي بلغته الطبقة الوسطى من غير شك  
عام ١٨٨٩ والحق إنهم طبقة وسطى مضيق عليها ، قلقه ، نافذة الصبر بل  
وخطرة جداً كما سنرى . وقد فقدوا بكل ما في الطبقة الدنيا التي كانت تتألف  
فيما مضى من عوام أميين . ولم يعد في هؤلاء السكان المحدثين المتكاثرين  
أى أنواع التواضع الاجتماعي ولم يعودوا يعتقدون في تنزيه حكاهم . فهم  
يرونهم سافرين : ويعلمون عنهم ، وعن تبديدهم ورتائلهم ومواطن ضعفهم  
في وضوح مبالغ فيه . ولا يرون سبباً يبعث على حيولة هؤلاء الناس بينهم



وبين طيبات الحياة وقد فقدوا شعورهم بالنقص مما جعلهم يدركون معظم ما فيهم من تخلف جأر دخيل .

قد تقول إن هذه الحالة مؤقتة لاتدوم، وإن النقص في السكان سيجل الاشكال بالتخلص من هذا الفيض الذي لا حاجة إليه ولكن شيئاً من هذا لن يكون . فكلما نقص السكان نقص الاستهلاك . وستظل المصانع على اضطرابها في إنتاج كامل اسوق يأخذ في الانكماش والضييق وسيكون استغلالها للأيدى العاملة أقل وأقل والدولة التي تتألف من خمسة ملايين من الأنفس بينهم نصف مليون متعطل فيها من القلق والاضطراب ضعف ما في الدولة التي تضم أربعين مليوناً من الأنفس بينهم مليون من المتعطلين وما دامت الأحوال على ما هي عليه الآن فإن هذه الطبقة من الشباب الحائر ستشمل تبعاً لذلك الجماعة بأسرها . ولما يدرك العالم بجلاء إلى أي حد تعدد متاعب عصرنا الحاضر لهذا المظهر الجديد من مظاهر المشكلة الاجتماعية ولكننا إذا تحرينا الدقة في فحص حوادث النصف الأخير من القرن الماضي على ضوء هذه الحقيقة فإننا سنقتنع شيئاً فشيئاً بأن العوامل الهدامة إنما تظهر خلال هذه الرغبات المكبوتة الكثيرة المتزايدة .

فإن الشباب المتعطل المتعمر المتحفز هم في الحقيقة الجنود الذين يقوضون أركان الكيان الاجتماعي القديم في كل مكان فهم يلقون بقيادهم إلى حزب أمين أو زعيم ملهم ينظمهم لأغراض ثورية أو مناهضة للثورة . فهم يصبحون شيوعيين أو فاشيين أو نازيين أو من جنود الجمهورية الإيرلندية



أو من أتباع كوكلكس Ku Klux Klausmen وهم جرا وهذا ينطوى على امتزاج الجهد والقمع وعدم الرضا . وما تشترك فيه هذه الحركات جميعاً هو الاحتقار الشديد للنظم الاجتماعية التى أوجدتهم ثم لم تحفل بهم ، فينشأ عن ذلك نظام شبه عسكري وتصميم على أن يقبضوا بأنفسهم على أزمة الأمور فى شخص زعمائهم . والحكومة القوية الرشيدة هى التى تتوقع هذه الجهود الهدامة وتتنكب عنها بأن تدبر مختلف وسائل العمل الجديد وأن تهيب للجميع أسباب الحياة الناجحة المطمئنة . فالشباب هم الحياة . وقيام الزعيم الموفق انما يقضى على هذه المشكلات إلى حين . فهو يصل إلى السلطان باسم الحركة التى قاد لواءها . وماذا بعد ؟ ... ومادام هذا الزعيم قد بلغ غايته من السلطان . فانه يجد نفسه مرغماً على أن يبقى الأمور على حالها . . . ويختلق المبررات لزعامته ما أضع على المتبرمين الأعمال والأقوال .

أما الزعيم البصير فيستطيع بواسطة المعاونة الفنية الملائمة — أن يوجه الكثير من الجهد الإنسانى الذى يتحكم فيه إلى غايات إنشائية . مثال ذلك أنه يستطيع أن يشيد من جديد المدن القذرة غير الصالحة فى عصرنا هذا ويحول الريف الزرى المهمل إلى ملاعب ومتنزهات ويذكر الخيال ويحرره ويشجذه حتى تغدو الأفكار التى تدفع إلى التقدم الإنشائى سنة من سنن العقل . ولكنّه إذا أراد ذلك فإنه يواجه أولئك الذين يتمسكون بحقوق الامتلاك بالشفعة ووضع اليد فى النظام القديم وسيساوم هؤلاء



السراة إلى النهاية ويعطون استيلاءه على الأرض والموارد المادية واستغلالها وسيجد نفسه مقيداً بهذه الحقيقة وهي أنه في تنظيمه لشبانه عليه أن يحول عقولهم وجهودهم من العمل الإنشائي إلى الجهاد المسلح العنيف . ومن اليسير أن يصبح الشاب المتعطل فاشياً أو قاطع طريق ولكن من العسير أن نعيده إلى ضرب من ضروب العمل الاجتماعي المهدب . أضف إلى ذلك أن الزعماء يدينون بزعامتهم في الغالب إلى ما في هذا الشاب المتعطل من نزوع إلى التآمر والمغامرة . بل إن هذا الزعيم نفسه غير أهل للعمل الإنشائي ولذلك يجد نفسه محارباً على رأس عصبة من المحاربين .

زد على ذلك أن الزعيم إذا لم تكن أمته في مجال روسيا أو الولايات المتحدة فإن كل محاولة يبذلها لتحقيق وعوده بحياة راغبة ستصدم حتماً بالنفوذ المتبادل بين الدول القوية الذي يرجع إلى إلغاء المسافات وتغير للمقياس ، وهو ما سبق أن عرضنا له . فليس له مجال حر يعمل فيه وينشأ عن هذه الصعاب المتداخلة أن يتحول الزعيم وعصبته بلا هوادة إلى السماح بقيام هذا الفيض من حروب السلب والنهب وتحريرها من كل قيد .

فنحن نجد الحكومات في كل مكان وإن اختلفت الظروف المحلية تشغل نفسها أولاً وقبل كل شيء بهذه المعضلة العظمى وهي ما تصنع بهؤلاء الشباب البالغين الذين لا عمل لهم في الظروف الحاضرة ويجب أن ندرك هذه الحقيقة وألا نغفل عنها أبداً . فهي في كل آن أخطر فكرة عن الموقف



العالمى وأدعاها إلى التخليط أن تعامل بعض الأمم كأنها تختلف اختلافاً جوهرياً عن سائر العالم .

ومشكلة إيجاد العمل الجديد للمتطلين البالغين هى المشكلة الأساسية التى تواجهها كل دولة . فهى السمة الشائعة التى تظهر فى جميع الأحداث السياسية . وكيف يتأتى لنا أن نستنفذ هذه الزيادة فى الجهد الإنسانى أو نطفيء جذوتها ؟ فالشباب هو الخلاصة الحية لجنسنا البشرى . والجيل الذى دون السادسة عشرة أو السابعة عشرة لما يبدأ فى إثارة المتاعب ، والذين فوق الأربعين تضمحل حيوياتهم فيقنعون بما قسم لهم .

ويجد أمثال فرانكلين روزفلت وستالين أنفسهم مشرفون على إدارة أمم متسعة الأرجاء لما تأخذ حظها فى الرق ولما تستقم من تطورها فتتنصرف معظم جهودهم إلى الشؤون الداخلية ينظمونها أو يعيدون تنظيمها . وهم بذلك لا يوسعون رقعة بلادهم ولا يوسعون الحروب . والتوسع الروسى الأخير إنما كان من وسائل الاحتياط فى الدفاع وعلى روسيا وأمريكا معاً أن يهيئتا أسباب الحياة لهذه الطبقة الاجتماعية المزعجة كما هو الحال فى أوروبا مشروع النوديل The new Deal ما هو إلا محاولة واضحة لتحقيق اشتراكية عملية وتجنب التدهور الاجتماعى فى أمريكا وفيه مشابهة عجيبة للأظمة والخطط التى تعمل بها الشيوعية الروسية ويفزع الأمريكيون من كلمة «الاشتراكية» ولكن ما عسانا أن نسميها ؟.. أما الأرستقراطية البريطانية المنحلة البطيئة بثروتها المكدسة من عصر المغانم ، فقد تخلصت ، من



الثورة الاجتماعية إلى حين بتخدير الألم تخديراً بطيئاً يفت في عضد الجماعة ولما تبذل أية محاولة جديدة في استخدام تهينة العلم والعمل لهؤلاء المتعطلين وكان قصارها أن تقذفهم بالآلام بل إنها تحاول أن تشتري زعيم حزب العمال بمرتب قدره ألفان من الجنيهات كل سنة . ومهما يكن من رأينا في النظام النازي أو الفاشي أو في حماقات زعمائهما ، فيجب علينا أن نسلم أنهم يحاولون — وإن كانت محاولة عقيمة — أن يشيدوا حياة جديدة على أساس جماعي . وهي محاولات غايتها الملائمة والبناء ومن ثم فهي أسبق من الطبقة البريطانية الحاكمة . وقد أثبتت الأمبراطورية أنها أقل الحكومات من الفاحية الإنشائية فلم يصدر عنها مشروع كمشروع New Deal أو كمشروع الخمس سنوات ، وستحاول جاهدة أن تدرأ ما ينخر في عظامها وتستمر في سيرها في النهج القديم ، والظاهر أنها ستظل كذلك حتى ينضب معينها .

فبدأ « السلام في عصرنا » هذا المبدأ الفج الذي يعني المستر تشمبرلين به نفسه ، هو العقيدة التي يهتدى بها الساسة القدماء . فهي الرغبة الطبيعية التي نستشعرها جميعاً بعد الستين وهي أن نجلس جلسة مريحة في مكان ما . فهم يريدون بأى ثمن هدوءاً لا تقدم فيه ، بل إنهم مستعدون لأن يدفعوا ثمن هذا الهدوء حرباً واقية . ولم تظهر قط هذه الجماعة العجيبة من الحكام أى فكرة ما عن مستقبل مشترك ينتظر امبراطوريتهم المتشعبة . وقد جاء وقت كادت تصبح فيه هذه الأمبراطورية موثق الكيان



العالمى ، ولكنها أظهرت الآن ألا مستقبل غير التفكك والانحلال  
وجلى أن حكمها كانوا يتوقعون لها أن تظل أبداً على ما كانت  
عليه . وأخذت أجزاؤها التى تتألف منها يتساقط الواحد بعد الآخر شيئاً  
فشيئاً وتصبح دولاً مستقلة وذلك بعد نضال عقيم بوجه عام . فجنوب  
إيرلندا يقف على الحياد فى هذه الحرب كما ترددت أفريقيا الجنوبية فى  
خوض غمارها .

والآن وهذا هو السبب الذى دعانا إلى تأليف هذا الكتاب فقد دفع  
هؤلاء الحكام ، بسلسلة من الأخطاء الشنيعة ، بما تبقى من أمبراطوريتهم ،  
فى حرب عظمى للقضاء على هتلر . وهم لا يبدون قط لخصومهم أو للعالم أجمع  
رأياً ماعما سيكون بعد هتلر . والواضح أنهم يأملون أن يشلوا حركة ألمانيا  
بطريقة لما تتحدد بعد ثم يعودون إلى لعب الجوانف أو صيد السمك أو  
يقفون إلى جانب المدفأة بعد العشاء وليس من شك فى أن هذا هو أعجب  
شئ فى التاريخ ، وهو احتمال الموت والدمار فى حين لا نجد عند  
حكومتنا الحاربة فكرة ما عما سيتم بعد تمام القضاء على هتلر ويظهر  
أنهم مجردون من كل شعور بالمستقبل ، كما أن رؤوسهم قد خلت من كل  
شئ يتصل بنتائج حروبهم .

ومن ثم كانت الأمبراطورية البريطانية تأخذ طريقها إلى الإفلاس  
التام — تشتري راحتها من عناء التفكير فى مشكلات المستقبل الحيرة ،  
بما تجمع عندها من ثروة الماضى وسلطانة . وهى تتحول بسرعة إلى أكثر



النظم السياسية رجعية في العالم ولكن بعد زمن يقصر أو يطول سيذهب ما عندها من مال تبذله ، ولن يعود لها حلفاء تجرهم ، أو مستعمرات تسلمها إلى زعمائها الوطنيين ، ويحتمل كذلك أن يصبح انحلالها تاماً أن استثنينا أذكىاء الإنجليز يعتقدون أواصر الصلة بأمريكا وسائر الأذكىاء في العالم ويواجهون المشكلة العالمية ألا وهي كيف السبيل بين الملائمة بين أنفسنا وبين تلك العوامل الهدامة التي تقوض أركان المجتمع البشرى بنظامه الراهن .

ونحن نجد في الأمم المضطهدة ذات المجال الداخلي الضيق والتي تعوزها الموارد الطبيعية الكبيرة التي للجماعات الروسية والأطلنطية ، أن الموجه الداخلية تعمل في سبيل حرب الاعتداء مباشرة ، ولكن القوة الكامنة وراء عدوانهم هي بعينها المشكلة العالمية ، مشكلة هذا العدد الزائد من الشباب .

ونحن إذا نظرنا إلى الحرب الحالية بهذه النظرة الواسعة لعادت إلى مستواها الحقيقي فتبدوا مجرد نزاع أحق على أهداف ثانوية تعطل تنظيم العالم تنظيمًا شاملاً وتمنعه وقتل مئات الأنفس أو آلافيها لا يقدم ولا يؤخر . فإن معتموها بيده مسدس يستطيع أن يقتل أسرة بأكملها ولكنه يظل مع هذا معتموها .

وانقضى بين ١٩١٩ و ١٩٣٩ ربع قرن من الحماقة والصغار والتحاييل والغل ولن يستطيع المؤرخ المجد المثابر إلا أن يحاول توزيع اللوم على أولئك



الذين ساهموا في هذه المأساة . ولكن عمله هذا ان يقدم ولن يؤخر . فإن معضلة شاقة محيرة قد واجهتنا جميعاً . وفقدنا جميعاً رؤسنا أمامها وخرجنا عن وقارنا وتشبثنا بالحلول الرخيصة واقتتلنا بلا روية فأخطأنا وما اهتدينا .... وأهملنا ما كان ينبغي أن نعمله وعملنا ما كان ينبغي أن نهمله ، ولم تسلم حياتنا .

وأنا لا أجد سبيلاً إلى حل مشكلة السلام العالمى إلا إذا بدأنا بأن نعترف أولاً وقبل كل شيء بشيوع الخطأ في التفكير والخطأ في العمل وعندئذ نستطيع أن نتدبر المسألة ونحن نتوقع حلها .

ولنسلم الآن بأننا معشر الأذكىء ، الألمان كذا أو الفرنسيين أو انكليز أو أمريكيان أو طليان أو صينييين أو غيرهم قد صممنا — في أعقاب الحرب وبالرغم منها — على أن نمحو من عقولنا جميع أسباب النزاع ونبحث في بساطة ووضوح موقف الإنسانية الحالى وما عسانا فاعليه لهذا العالم ؟ فلنسترجع الاعتبار التي دخلت في المسألة .



## حرب الطبقات

ونرى لزماً علينا هنا أن نفرق تفرقة كثيراً ما يهملها الباحثون .  
 فالجماعية هي وضع أزمة الشؤون الإنسانية في يد حكومة عامة مسئولة  
 أمام الجماعة كلها . وهي القضاء على الأباحية في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية  
 كما هو الحال في الشؤون الدولية . وهي الإلغاء الصريح للبحث عن الربح  
 وكل ما من شأنه أن يجعل بعض الناس عيالا على غيرهم وهي التحقيق  
 العملي للإخوة الإنسانية بواسطة حكومة عامة . وهي تعنى هذا كله ،  
 ولا شئ غيره .

أما ماهية هذه الحكومة ووسائل الحصول عليها والاحتفاظ بها فلا تزال  
 قيد البحث .

والاشتراكية في صورها الأولى محاولات لرسم النظم الجماعية وتطبيقها  
 ولما جاءت الماركسية اختلطت الأنظار الجماعية الكبيرة بأخرى أصغر في  
 صراع الناس الدائم في كل هيئة اجتماعية غير في منظمة سبيل الاستغلال .  
 واستمرت الأمور على هذا النمو طوال العصور . وحصل الأغنياء ، القادرون  
 الأذكياء ، الأكفاء ، على كل شئ ، وسخروا وظاموا واستعبدوا  
 وابتاعوا وأفسدوا من هم أقل ذكاءاً ، وكسباً ، ومقدرة . وظل



الذين يملكون على استغلال الذين لا يملكون أكبر استغلال ، فاستنكر هؤلاء المساوىء التى أدت إلى حرمانهم .

هذا هو الحال وكذلك كان فى كل العالم غير الجماعى . وقد علت صيحة المعوزين على مر العصور من عهد الفراعنة وأغنياء بنى إسرائيل متوعدة أولئك الذين يتحيفون على الفقراء . وقد مرت عهود كان فيها الذين لا يملكون من قلة العلم والحيلة بين السراة من أقرانهم بحيث عجزوا عن القيام بأى فتنة اجتماعية ولكن قلما حدثت وقائع مثل تجمعهم الناس فى الضياع والمصانع واجتماعهم فى الموانىء والثغور . وتسرع الجند وانتشار المجاعات وما إليها ألقت بين جماعات كبيرة من الناس على ألم واحد .

فتجمعت همومهم الفردية وأصبحت هما واحداً مشتركاً . وكشف النقاب عن ضروب البؤس الكامنة فى الجماعة الإنسانية . وألقى الذين يملكون أنفسهم وقد انقضت عليهم ثورة حاقدة غضوب .

ولا يغيب عن بالنا أن الثورات التى قام بها الذين لا يملكون طوال العصور كانت جد هدامة فى بعض الأحيان ، بيد أنهم فشلوا أبداً فى أن يحدثوا تغييراً جوهرياً فى هذه القصة القديمة ، والقديمة جداً لتكون لهم اليد الطولى أو لا تكون . وأفرغ الذين لا يملكون الذين يملكون أحياناً وأرغموهم على موادعتهم ، ثم أحرقت الخزائن أو القصور . وحزنت المقصلة رقاب الأشراف ، وعلقت رؤوس للعضة والاعتبار وهبت مثل هذه العواصف



ومرت ، وبمرورها يعود النظام القديم لأسباب عملية تروح أقوام وتأتى أقوام وعدم المساواة على حاله .

ومما تجدر ملاحظته أن الحياة الإنسانية فى تخطيطها طوال القرون التى سادها الجواد والقدم لم تشهد ثورة من هذه الثورات المستمرة المتكررة بين الفأزين والخاسرين ولم تحدث ولو مرة واحدة إصلاحاً ثابتاً فى مصير الإنسان أو غيرت معالم المجتمع الإنسانى تغييراً عظيماً .

ولم يكشف الذين لا يملكون قط عن ذكاء أو قدرة ولم يكشف الذين يملكون قط عن ضمير يحدثون به تبديلاً ثابتاً فى قوانين المباراة — فما كانت ثورات الأرقاء الفلاحين الرعاع الانوبات من الغضب والحملى الاجتماعية قد مرت . و بقيت حقيقة واقعة هى أن التاريخ لن يكشف من سبب ولنفرض أن الذين لا يملكون ، فى مجموعهم ، ذخيرة من الكفاية فى الإدارة والتوجيه وإخلاصاً بريئاً من الغرض يفوق ما للطبقات الأكثر توفيقاً . وليس لدينا من الأسباب ما يحملنا على الظن بأنهم خير من أولئك . خلقاً وعقلاً . .

ولعل كثيراً من القادرين الأكفاء يفوتهم التعليم ويخونهم الحظ وقد لا يكون النقص وراثياً فيهم ومع هذا فقد عطلوا وأفقدوا وحيل بينهم وبين النهوض . لقد أفسدوا .

وقد يخفق الكثير من الموهوبين من أن « يصلحوا شأنهم » فى عالم متدافع متنافس ، وهكذا يتردون فى الفقر وفى طرائق معيشة الضعاف



العتيقة الفاشلة ، ولكن هؤلاء من الشواذ أيضاً وصورة الفرد من الرعاع المستقيم العقل المستعد دائماً إلى العمل ما هي إلا ضرب من الأحلام . وتحقيق الفكرة الجماعية من المشروعات الاشتراكية الأصلية ، فقد وضع المفكرون الأملعيون هذا الكفاح الطويل بين الذين يملكون والذين لا يملكون في مكانه الطبيعي باعتباره جزءاً وإن يكن أشأم الأجزاء فهو جزء على كل حال ، من استنفاد الموارد الإنسانية الهائل الذي ينطوى عليه إستغلالهم المضطرب . وقد أخذوا يبينون على ضوء الحوادث الجارية أن الحاجة إلى الوقوف في وجه هذا الاستنفاد للموارد بواسطة جماعية عالمية شاملة قد أصبحت على الأيام أمراً ممكناً وملحاً .

ولم تخذعهم الأوهام عن التعليم والتحرير الضروريين لتحقيق هذه الغاية . وكانوا أقل تأثراً بالبواعث الخلقية وعواطف الأشفاق وما إليها من بواعث . تافهة وإن أثارت الإعجاب ، منهم بالاستنكار الفعلي الشديد للعيش في نظام مدمر أحق ، فكان منهم ثوريون لا لأن أسلوب العيش الحاضر شاق عاثر بل لأنه من أوله إلى آخره أسلوب محقق غشوم .

والانحراف بالاشتراكية إلى الجماعية ونشدهما نظاماً صالحاً موجهاً للشئون العالمية ظهر به المبدأ الماركسي الأخرق بعقيدته في حرب الطبقات الذي عمل الكثير في استنزاف الجهد الإنساني .

ورأى ماركس العالم من غرفة مكتبه وخلال الضباب الذي تثيره مطامعه الواسعة . وقد انساق مع أنظار عصره وساهم في اندفاع الاشتراكية



وقتكذلك نحو الجماعة . وبينما كان معاصروه الأحصاف منه عقلا يدرسون الوسائل والغايات ، قفز من مجال الدراسة . الناقصة للحركة النقابية في بريطانيا العظمى إلى أشنع ضروب التقسيم في التطور الاجتماعى واخترع نظريتين ، عارض أحدهما بالأخرى . أحدهما النظام الرأسمالى ، والثانية العامل . ولم يوجد على الأرض قط ، شئ يمكن أن يسمى بحق ، النظام الرأسمالى . والهدف الذى كان الاشتراكيون يتحسسون طريقهم إليه هو الكشف عن نظام عالمى وإقامته .

وكان الذين يملكون فى عصرنا ، ولا يزالون ، أخلاطاً عجيبة من الناس ورثوا أو حصلوا على النفوذ والسلطان بطرائق ووسائل جد متباينة . ولم يكن لديهم بل وليس لديهم الآن شئ من التماسك الاجتماعى ، شئ يشبه حتى الأرستقراطية الأقطاعية أو أشرف الهنود بيد أن ماركس نظر إلى نفسه الباطنة أكثر مما نظر إلى الحقائق الواقعة فبسط عن يمينه هذا النظام ، الوحشى ثم بسط ما يقابله وكان لا يزال ينظر فى ذلك الخلاء فكشف عن شماله الرعاع يجردون من أملاكهم ويصبحون شاعرين بهوان طبقتهم الدنيا وكانوا فى شدة تباينهم كالذين على رأس السلم ، وهذا التباين موجود فى الواقع ولكنه غير موجود فى نظر الشيوعيين . وسرعان ما تماسكوا هناك .

وبينما أخذ آخرون يفكرون فى للعضلة الهائلة . إذا بماركس يعثر على علاجه الصبببببب البسيط . هو كل ما يجب عليك أن تفعله هو أن تقول



للعمال إن هذا النظام الرأسمالى جائر ، الذى وضعه السراة يسلبهم ويستعبدهم وأنهم إنما يفتفرون إلى توحيد صفوفهم ، فلن يفقدوا شيئاً سوى أغلالهم ويجب القضاء على هذا النظام الرأسمالى الجائر بالانتقام من "الرأسماليين" عامة "والبرجوازية" خاصة ، فيحل عهد تكون الغلبة فيه للعمال وهو العهد الذى أوضحه بعد ذلك بعبارة جد مبهمه بأنه : "دكتاتورية الرعاع" وليس الرعاع فى حاجة إلى أن يتعلموا شيئاً أو أن يفكروا فى شىء إنهم مصيبون خبرون بطبعهم ؛ عليهم فقط أن يتعهدوا بالقضاء عليها . فإن ألوان الحسد والبغضاء والحقد التى لا حد لها فى الذين لا يملكون . تتحول إلى قوة خالقه جبارة ؛ وكل الفضائل فيهم ، أما الشرور فى الذين تفوقوا عليهم . وثمة شىء واحد طيب فى مذهب حرب الطبقات هذا الجديد ، هو أنه يقوى آصرة الأخوة بين العمال — وهم فى أشد الحاجة إليها — وإن قابل ذلك تدعيم بعض الطبقات . وهكذا سارت الدعاية العظيمة لحرب الطبقات بالتزييف الخطير للحقائق الواضحة . ولم تنشأ الجماعية كما تظهر بشكلها الأخاذ عندما يرفع عن كاهل الرعاع كابوس الرأسمالية وسائر هؤلاء السراة المزعجين .

ولم يكن ماركس بارعاً فى شئون المال — وكان يضيق ذرعاً بقوائم التجار . أضف إلى ذلك أنه كان يعزز مزاعم الأرستقراطية الواهية ، ونتج عن هذا أنه تخيل حياة العصور الوسطى المحببة بلون آخر وأنه ركز عقله ضد « البرجوازية » ، الذين حملهم مسئولية كل ما أشرنا



إليه من هذه العوامل الهدامة في الجماعة الإنسانية . وقد أصبحت شخصيات مثل اللورد باكون ، ومركز وركستر ، وشارل الثاني ، والجمعية الملكية ، بل ورجال أمثال كافندش وجول ووات مثلاً من « البرجوازية » في مخيلته الثائرة . وكتب في نشرته الشيوعية ، « إن البرجوازية خلقت قوة إنتاج أشد وأقوى مما كان في سائر الأجيال السابقة لها . وما الذي حدا الأجيال السابقة أن تقول في أقدم إشاراتها إن قوة الإنتاج كانت مستكنة في أرحام العمل المصاحب لها »

« أرحام العمل المصاحب لها » ( يا لها من عبارة ! ) ورؤى إن السبب في هذا هو الثورة الصناعية التي نتجت عن الثورة الميكانيكية . وهل ترى أن الحقائق تشوه أكثر من هذا ؟

وأردف ماركس يقول « . . إن النظام البرجوازي لم يعد قادراً على الملائمة بينه وبين وفرة الثروة التي تخلقها . فكيف تتغلب البرجوازية على هذه الأزمات ؟ إنها تفعل ذلك — من ناحية — بالإبادة الإجبارية لقدر من قوى الإنتاج ، ومن ناحية أخرى ، بفتح أسواق جديدة والاستزادة من استغلال الأسواق القديمة .

ولكن ما جدوى هذا ؟ جدواه أن الطريق يمهّد لاتساع رقعة الأزمات وإستفحال أمرها ، وأن القدرة على التغلب على هذه الأزمات تقل .

« والأسلحة » ( الأسلحة ! ونحن نعجب كيف يكثر هذا السيد المتكاسل المتخاذل الطويل اللحية — من استعمال التعابير العسكرية )



« التي قضت بها البرجوازية على نظام الأقطاع تتحول الآن لتطعن البرجوازية نفسها »

« بيد أن البرجوازية لم تشحذ الأسلحة التي تحزها فحسب ، ولكنها أوجدت من يستعمل هذه الأسلحة . وهم العمال المستحدثون ، الرعاع » وهكذا يصورهم لنا ماركس في نشرته وفي يدهم المطرقة والسندان ، بارزة صدورهم ، يعتمزون بأنفسهم ، لهم الأمر ، وعليهم سمات الجلالة ، ولكن اذهب بنفسك وشاهدهم في الطريق العام . إذهب وشاهدهم في روسيا .

بل إن هذا التحليل الاجتماعي لو طبقناه على العالم في عام ١٨٤٨ نجد أنه لم يكن بارعاً : إنه سورة رجل . . . ! أنه البرجوازي المسكروه ، رجل له نظرتة الخاصة ، لا ينقد أهواءه اللاشعورية ، ولكنه ما كر بحيث يدرك ما في الحقد ومركب النقص من قوة الدفع ، ما كر بحيث يصطنع الحقد . . وفيه من المראה ما يجعله حقوداً . وليقرأ أى فرد « النشرة الشيوعية » وليقدر من كان عنده أثره من حقد أو كان عنده الحقد كله ، إذا لم يكن ما كس بن حاخام يهودى . ولنضع لفظ « اليهود » موضع لفظ « البرجوازية » فتصبح هذه النشرة رسالة في التعاليم النازية الخالصة فيما بين عامى ١٩٣٣ — ١٩٣٨

وإذا ماردت الماركسية إلى أصلها بهذه الطريقة اتضح زيفها . بيد أن أشيع مظاهر الضعف في العقل البشرى وأعجبها هو عدم تحريه النقد للفروض



الأولية، وأنه يقضى على كل بحث فى صحتها بالصنعة، والمصطلحات والقواعد التقليدية. وتستند أغلب عقائدنا على أسس واهية، وتحاط هذه الأسس فى الغالب الأعم بهالة من القداسة لحمايتها من التهجم عليها، فتستحيل إلى عقائد بضرب من قدس الأقداس. ومن عدم اللياقة أن نقول « إنها محض ترهات » ويعصف الغضب والاستنكار بحجة العقائد كلها، « إذا مس ما فى أسس عقائدهم من الضعف أو الوهن. وبخاصة إذا سخر المرء منها ضاحكا » فذلك هو عين العار:

وإن مجافاة النقد الأساسى هو من أعظم المخاطر التى تهدد الإدراك الإنسانى العام. وليست الماركسية شذوذاً فى النزعة العامة. فان النظام الرأسمالى يجب أن يكون نظاماً حقيقياً، والبرجوازية مؤامرة منظمة ضد العمال. وإن كل نضال أو كفاح إنسانى، فى أى مكان، يجب أن يكون مظهرًا من مظاهر حرب الطبقات. وإلا فلا سبيل إلى مجادلتهم، فلن يستمعوا إليك. ولم أجد ثمة محاولة واحدة للإجابة عن الأسئلة السهلة التى ظلت أوجهها إليهم طوال ثلث قرن. فكل ما لبس فى لغتهم ينحدر عن عقولهم كلماء ينحدر عن ظهر البط. بل إن « لينين » نفسه — وهو أرقن الشيوعيين عقلا إلى الآن — لم ينبج من هذا المزلق، ولما تحدثت إليه فى موسكو عام ١٩٢٠ وجدته غير قادر على إدراك أن الصراع العنيف القائم فى إيرلندا حينذاك بين الوطنيين الكاثوليك والحامية البروتستانتية لم يكن ثورته المقدسة. التى يحمل لواءها الرعاع.



وفي العالم اليوم عدد كبير من الكتاب ، وبينهم بعض رجال العلم ،  
يجب عليهم أن يحسنوا التفكير . وهم يضعون في خشوع ، فلسفة متحولة  
للعلم والمجتمع ، تقوم على الاسس البائدة الباطلة التي قال بها ماركس .  
ويصب نادى الكتاب الأيسر المجد ، كتاباً جديداً كل شهر ، على عقول  
أنصاره ، ليقوم أفكارهم ، ليحميهم من تشكك تواليف المجددين . وسوف  
يتبع ذلك بطبعة الحال صدور فهرس حزبي للكتب المحرمة . وأخذ علماء  
مبرزون معززون بعقريتهم يحاضرون ويناقشون بل ويصدرون مجلدات  
عليها مسحة الجدل في تفوق الطبيعيات الماركسية ، والبحث الماركسي ، إلى  
العقل الانساني بجهوده التي لا صبغة لها . . . والمرء منا يحاول ألا يكون  
قاسياً في الحكم عليهم ، ولكن من العسير علينا أن نعتقد أنهم لا يعتمدون  
تعمل أنفسهم ، وهل يشعرون أن الشيوعية الثورية أمامهم . وهل هم  
يعملون كل ما في وسعهم لتدعيمها من الناحية العقلية وهم يرتقبون هذه  
الأيام الدموية الحمراء في المستقبل القريب ؟

ولست أستطيع في هذا المقام أن أتبع بالتفصيل سيرة الماركسية في  
نشأتها وانحلالها في روسيا ، فهي تؤيد في كل دقيقة من دقائقها ما ارتأته  
من أن فكرة حرب الطبقات ما هي إلا تخبط وقلب لاتجاه العالم نحو  
الجماعية العالمية ، وأنها عبارة عن مرض الاشتراكية الشعبية المبدد ،  
وقد نمت في سيرها العام نحو كل ثورة قام بها الذين لا يملكون منذ بدء  
التاريخ . وكانت روسيا في مغرب تاريخها من عدم الكفاية حتى تسر بلت



في الظلام ، وعمل رجالها غير الأكفاء من المهندسين والقائمين بالاعمال والواضعين للخطة وغيرهم ، أعقد نظام من نظم الحماية الذاتية ضد النقد . وكاد بعضهم لبعض وتآمر بعضهم على بعض . وأنت تستطيع أن تعرف خلاصة الأمر كله في كتاب صفحاته قليلة عن ذهب السوفييت « وكانت الثورة كغيرها من ثورات الذين لا يملكون منذ فجر التاريخ ، استولت فيها عبادة الأبطال على الجماهير الهالكة . ولم يكن بد من ظهور زعيم . فقد تخلصوا من القيصر ، وما انقضت عشرون سنة حتى أخذوا يعبدون ستالين — وكان في الأصل رجلاً ثورياً على شيء من الأمانة ، طموحاً غير عبقري — ساقته الحوادث إلى العمل لحماية نفسه باصطناع القسوة ، وانتفخت أوداجه بتملق حكمه المطلق الشبيه بالالهى . وتم الدورة فلا نجد تغييراً ما كما هو الحال في كل ثورة جموح أخرى . . فقد زال عدد كبير من الناس وحل محلهم عدد كبير آخر . وكأن روسيا تعود أدراجها إلى النقطة التي بدأت منها أى إلى استبدادية وطنية ، جدارتها محل شك ، وغاياتها مبهمه غير محددة . وأنا أعتقد أن ستالين رجل أمين صادق النية ، وهو يؤمن بالجماعية في بساطة ووضوح . وهو لا يزال يؤمن بأنه يقصد الخير للروسيا والشعوب التي تقع تحت سلطانها . وبلغ من اعتداده بنفسه أنه لا يصبر على نقد أو معارضة . وقد لا يكون خلفه مثله استقامة وعدم تحيز .

وحسبى ما كتبته في توضيح السبب الذي يدعونا إلى فصل الجماعية



عن حرب الطبقات فصلاً تاماً في عقولنا . فلنكتف بما أضعناه من وقت في النظر إلى مشهد الماركس وهو يضع العربية أمام الجواد . ويربط نفسه بعدة الخيل . ويجب أن نطرح من عقولنا هذه النظرة العامة إلى الموضوع . وأن نبدأ من جديد في بحث موضوع ( كيف نحقق الجماعية العالمية ) باحتمالاتها الجديدة التي لا سوابق لها ، وهي الاحتمالات التي ظهرت بوادرها في المائة سنة الماضية . وبهذا نبدأ سيرة جديدة ، وهي تخالف الأولى تمام المخالفة .

ونحن بنى الإنسان ، نواجه قوى هائلة ، وهي إما قضت على الإنسانية جمعاء ، وإما رفعتها إلى مستوى لم يسبق له مثيل في القوة والرخاء ، وعلينا أن نتحكم في هذه القوى أو تقضى علينا . وإذا أحكم تدبيرها فقد تنفى العمل الشاق ، والفقر ، وقد تنفى العبودية بوسيلة واحدة محققة هي أن تجعل هذه الأشياء جميعاً ولا ضرورة لها . وقد أتيحت الفرصة لشيوعية حرب الطبقات أن تحقق هذا كله . ولكنها أخفقت . وهي إلى الآن ، لم تفعل شيئاً سوى أن أحلت أوتوقراطية روسية محل أوتوقراطية أخرى روسية . ولا تزال ، روسيا — كسائر بقاع العالم — تواجه مشكلة الحكم الصالح في النظام الجماعي ، ولكنها لم تستطع لها حلاً .

فقد خيبت آمالنا دكتاتورية الرعاع ، فيجب علينا أن نبحث عن وسائل التدبير في نواح آخر . . . وهل نجد لها ؟



## الاشتراكية لا مفر منها

ولندرس الآن بعناية أكبر، وإن كنا سنلجأ إلى شيء من التكرار، الطريقة التي تنتهجها عوامل الانحلال في العالمين الشرق والغربى .

فالعالم القديم مصاب بالتخمة في التسلح والعالم الجديد مصاب بالتخمة في الأعمال بنظامها الواسع وقد زاد الشعور في كليهما بالحاجة إلى التخفيف الجماعى من العمل أو من المغامرة السياسية وكان قد فقد التناسب وزاد عن الطاقة . وقام أصحاب المصالح الكبيرة فى أمريكا بمعارضة رئيس الجمهورية ، وكان زعيم الحركة الداعية إلى تحقيق الجماعة ، وأرادوا الوقوف فى وجه تحويل الأمة إلى الاشتراكية التقدمية ، ولعالمهم يعوقون الاتجاه نحو الاشتراكية إلى حد كبير وذلك بمضاعفة الخلاف بين الطبقات الاجتماعية .

ولكن من غير المعقول أنهم يجروُن على أن يثيروا وأن يهزوا الكيان الاجتماعى بقلب الأوضاع فيه أو بالارتداد إلى أيام الأعمال العظيمة الزاهرة والمضاربات العنيفة والبطالة المستفحلة قبل عام ١٩٢٧ وكل ما يستطيعون ، تعويق هذه الحركة ذلك لأن جميع الطرق فى العالم الآن تؤدى إلى الاشتراكية أو الانحلال الاجتماعى .

والوقت الذى يتطلبه التحول يتفاوت فى القارتين وهو الفارق الجوهرى



بينهما . إنهما لا تتعارضان فلقد تفاوتت سرعة كل منهما وإن كان هدفهما واحداً ، ففي العالم القديم الآن تسير الحركة الاشتراكية بخطى أسرع وأثبت منها في أمريكا وذلك للحرب التي تهددها على الدوام وتقدم الحركة الاشتراكية والانحلال في أوروبا الغربية الآن بما يشبه الطفرة وحاولت الطبقة الحاكمة البريطانية ، أو الساسة البريطانيون عامة ، وقد أخذتهم صيحة الحرب التي لم يكن عندهم من الذكاء ما يوقهم إياها أن يكفروا عن ضيق عقولهم في العشرين سنة الماضية بعمل مرتجل غير فطين والله يعلم إلى أي حد بلغ استعدادهم الفعلي للحرب ولكن يظهر أن سياستهم الداخلية تقوم على دراسة غير وافية لبرشلونة ، ومدريد ، ووارسو فهم يتخيلون مصائب مشابهة على نطاق أوسع — وإن استحال ذلك ، كما يعرف كل متزن العقل يقدر الكمية الموجودة من البترول — ويفزعون من إلقاء المسؤولية عليهم . إنهم يخافون يوماً تحاسبهم فيه الطبقات الدنيا التي طال خداعها وهم في ذعرهم يقوضون أركان النظام القائم . فالتغيرات التي حدثت في بريطانيا العظمى في أقل من عام تحير الألباب . وهم يذكرون في مناسبات شتى إجلاء الناس في روسيا في الأشهر الأخيرة من عام ١٩١٧ فقد كانت هناك نقلة وامتزاج بين الناس يستحيلان على أي فرد عام ١٩٣٧ إذ قامت السلطات بإجلاء الناس عن المناطق الآهلة تحت التهديد المبالغ فيه بالغارات الجوية بطريقة طائشة هوجاء . وانحلت أواصر مئات الألوف من الأسر وفرق بين الأطفال وأبائهم ، وأسكنوا بيوتاً أكره أصحابها على



قبولهم فيها فانتشرت في طول البلاد وعرضها الأمراض الطفيلية والجلدية والذائل والعادات غير الصحية من الأحياء الفقيرة في مثل جلاسغو ولندن ولقربول وكان ذلك بنزعة من نزعات الدعوة إلى المساواة . فقد أقفلت السكك الحديدية والطرق وسائر المواصلات العادية بحركة عامة وظلت بريطانيا العظمى شهرين أشبه ما تكون بعش نمل مضطرب منها بقطر منظم متمدين وقد أصاب الشرر كل إنسان . ونقلت المنشآت العامة ودور الأعمال الكبيرة إلى مناطق بعيدة شاقة . واندفعت هيئة الإذاعة البريطانية من لندن بطريقة عجيبية ولغير سبب من لندن فلم يتبعها أحد وعم في البلاد وباء شديد هو فصل الخدم — الذين يشتغلون في لندن مثلا — وإقبال أشد على رجال غير لائقين لأعمال جديدة وغير ضرورية وقد حث كل امرئ على القيام بخدمة وطنية وسحب الأطفال في سن الثانية عشرة من مدارسهم وأكروهوا على العمل في الحقل وكذلك الفلاحون الرجعيون ومع ذلك فإن عدد من فقد عمله منهم ولم يجد سواه يربو على المائة ألف . وقامت هناك محاولات مرتجلة لتحديد الطعام فأحدثت وفرة هنا ونادرة هناك وقضى على الأعمال الصغيرة المستغلة لمصلحة كبار المتعهدين الذين تحولوا في ليلة وضحاها من متجرين على المكشوف إلى خبراء مستشارين في مسائل التكوين وكل الخبرة التي أظهروها هي استخلاص الربح من التكوين وكلما أخذت أرباحهم في الازدياد عمدت الضرائب ، في حزم شديد ، على تقليم أظفارهم .



والشعب البريطاني رابط الجأش في الملمات قوى الجنان قليل الحظ من الفهم إلى حد لا يستسلم معه لعوامل الخوف بيد أن السلطات رأت من الضروري أن تطلّي الحوائط والجدران بلافتات كبيرة كثيرة النفقة على رأسها تاج ملكي وقد كتب عليها « إن شجاعتكم وعزمكم وبهجتكم ستكسبنا النصر » .

فإذا رأى أحد أبناء لندن هذه العبارات قال « لي ستكسبون النصر ما في ذلك شك ، وستستغلون شجاعتى وعزى وبهجتى وتدفعوننى إلى الجندية وتضحكون علىّ في تلطف وتظنون أنكم تستطيعون إعادتى إلى كومة التراب مرة بعد مرة » كل هذا صحيح ، وسيظهر حكمنا هذه المرة بمظهر من لا يوثق بهم ويكرهون على مواجهة شعب مضطرب ثأر متسائل . لقد قطعوا على أنفسهم وعودا خلافة بإعادة بولنده ولكنهم سيضطرون إلى تناسى هذه الوعود . أو لعل الحكومة تحل محلها أخرى تستطيع أن تسمح هذه الوعود وهى أرفع رأساً . والشعب لا ينتظر هذه المرة القيام بصلوات الشكر أو الاحتفال بليلة توقيع الهدنة فالناس في إنجلترا يذوقون ويلات الحرب أكثر من الجند في الميدان . فقد أغلقت دور السينما والمسارح قبل الأوان وقلل الظلام من أمن الناس وضاعف حوادث الطريق وأصبح الجمهور الانجليزى مكتئباً لم يره العالم في مثل هذا الخلق السوء منذ قرن ونصف ولا نخطئ إذا قلنا إن استيلاءه من الألمان دون استيائه من حكمائه . وشق الاستعداد للحرب طريقه خلال هذه الدعاية المهيجة المندفعة عن



الاضطراب الداخلى وخلال العمل المنظم على إخفاء الأخبار الصحيحة والنقد المثير . ولا يجد المواطن المتحير الخدوع أمله إلا فى الجيش حيث الحياة أقل اضطرابا وتشويشاً . وفقد الناس الثقة فى كل شىء وفى الحكومة والنظام الاجتماعى بنوع خاص وأصبح المرء لا يأمن على عمله أو وظيفته أو مدخراته أو حتى على النقود التى فى جيبه . مع أن المجتمع الإنسانى يقوم على الثقة ولا يعيش إلا بها . هكذا كانت الأحوال ولما نزل الحرب فى بدايتها .

وللطبقة الحاكمة وأصحاب الأموال الذين يسيطرون على شئون بريطانيا مركز خاص . وتكاليف الحرب باهظة وليس هناك ما يدل على نقصانها . ورفعت ضريبة الدخل والضريبة الاضافية ورسوم الدفن والضريبة على أرباح الحرب إلى حد يقضى على الطبقة الوسطى التى كانت تعيش فى يوم من الأيام عيشة راضية والسراة يقل ثراؤهم وينخفض مستوى معيشتهم . أما طبقات أصحاب الحرف . وهى بين طبقة السراة وجموع الفقراء ، فحياتهم أشد عسراً ، تهبطهم التضحيات للحرب ، وتفشو بينهم البطالة ويزيد تطالعهم وتساؤلهم . ولن يجد الشاب البارع من فرجة يسبق منها أقرانه فى الشراء إلا بالمهارة الفائقة من استغلال أمواله والتهرب الخطر من الضرائب وما إلى ذلك من أعمال الضعة فى حين تصبح الوظائف العامة أكثر جاذبية ذلك لأنها أعظم فائدة وأكبر احتراماً وكلما طالت الحرب كلما زاد انحلال النظام القديم وتعذر اصلاحه .



وأنا أقول للقراء الكثيرين الذين يكذبون ما سقته في القسم الأول من هذا الكتاب من أننا نعيش في خاتمة عهد ، ولأولئك الذين لم ينسوا ما أوردته عن عوامل الانحلال التي تقوض النظام الاجتماعي القديم وللذين يزعمون أنهم علميون أو ماديون أو اجتماعيون أو إنهم من خاصة المفكرين إلى الذين يقولون إن القدر الذي كان ولا يزال يتميز بشكل واضح للسراة المتخمين بلداء العقول ، سيتلطف معهم في اللحظة الأخيرة . . . أقول لأولئك وهؤلاء جميعاً إن المتاعب والآلام والتضحيات واضطراب الحياة سيثبت لهم إن الثورة في أوروبا الغربية توشك أن تندلع . ومن العسير أن نواجه الكثيرين من الطبقات الغنية وبخاصة إذا كانوا من الكهول ، بأن النظام القديم قد مزق إربا ولن تقوم له بعد ذلك قائمة . ولكن كيف يشكون ؟

لا بد من نشوب ثورة ، أو بعبارة أخرى لا بد من حدوث انقلاب يختلف قوة وضعفاً في الأوضاع السياسية والاجتماعية في هذه الأمم المجهدة ، في ألمانيا ، وفي بريطانيا ، بل وفي سائر أنحاء العالم . لا بد أن نحصل على ثورة من أي نوع ولن نستطيع أن نقف في وجهها ، ولكننا نستطيع أن نوثر في سيرها ، وقد تنتهي بالدمار وقد تبرز لنا علماً جديداً من العالم القديم ومن ثم نستطيع أن ندبر الكيفية التي تكون عليها .

والسؤال العملي الوحيد أمامنا هو كيف نواجه هذه الثورة العالمية التي لن نستطيع أن نتفادها واسمحوا لي بهذه المناسبة أن أذكركم بما أوردته



في الفصل الثاني من هذا الكتاب عن الأسباب الداعية لطرح موقفنا الحالي للدولة العامة وأن أنبهكم إلى ما ذكرته في الفصل الرابع عن المذهب الماركسي ، فقد بينت هناك كيف اضمحلت بسهولة حركة جماعية لقيت مقاومة ضعيفة متظاهرة بالقوة واحتمال الاضطهاد ممن بيدهم السلطة والثراء وتحولت إلى لون عتيق من ألوان حرب الطبقات وأصبحت حركة تأمر وتعصب لا يمكن الأخذ بها وانتهت بصورة من صور الاستبداد وعبادة الزعماء . هذا ما حدث للروسيا في عهداها الحالي ونحن لا نعرف ماذا بقي من روح الثورة الأهلية . وأهم ما في الموقف العالمي الحاضر هل نقص خطوات روسيا أم هل نتحدد ونواجه الضرورة الملحة ونحدث ثورة غربية تغير من التجربة الروسية وتفعل فيها ويكون هدفها الوحيد التفاهم العالمي وما الذي يضيق عالم الأطلنطي أكثر من غيره في عالم السوفييت اليوم ؟ أهو عدم موافقته للجماعية كما هي هناك ؟ ولقد احتفظ قليلون من الأكفاء لعلمهم أقل من خمسين بفرديتهم في المسائل السياسية والاجتماعية إنهم ليسوا من المناهضين للشيوعية وكل ما حدث أن ظلت الحياة السياسية للجماعة في أيدي رجال من الطراز القديم لا يعقلون وتقاسى الأمم التي تعرف بالديمقراطيات من حكم الشيوخ الذين لم يسايروا الزمن ولا تقوم المعارضة الحقيقية المجدية أو عدم الثقة أو عدم التسليم بالنظام السوفيياتي على تخلف فردية هؤلاء الشيوخ الرجعية عن الزمن بل على الاعتقاد بأنها لن تبلغ الكمال المنشود ولن تحقق مثلها الأعلى القائل بأن الجماعة للفرد والفرد



للجماعة إلا إذا أطلقت فيها حرية القول واعترف قانونها بحريات الفرد داخل النطاق الجماعى ونحن لا نأسى على الثورة الروسية لأنها ثورة ، ولكننا نشكو من أنها ثورة لم تحقق ما نرجوه ولذلك فإننا نطلب ثورة أحسن منها .

وإذا أخضعت الأشياء للنظام الجماعى كان من الضرورى وضع دستور لحقوق الإنسان وقد أغفل السوفييت هذه الحقيقة فعاش الناس هناك غير آمنين من جور البوليس فكلما زاد سلطان الحكومة كلما اشتدت الحاجة إلى سن قانون لحماية الفرد . ويعترض على الجماعة السوفياتية أنها لن تعمر لأنه يعوزها قانون يضمن الحرية الشخصية ويحميها . وهى تزعم أنها فى جوهرها نظام اقتصادى عام يقوم على المبادئ المتصلة بحرب الطبقات فالمشرف على الصناعة يخضع لقوميسيون الحزب والبوليس السياسى يخرج عن الجادة وتنصاع الأمور نحو حكم الأقلية أو الحكم المطلق وتحمى عجزها بالقضاء على كل معارضة لها .

وتظهر لنا هذه الانتقادات الصحيحة نوع الجماعة الذى يجب أن نتجنبه وإذا كنا لا نريد أن تكسحنا موجة التبلىشف الآتية من الشرق فإن علينا أن نأخذ بهذه الانتقادات الصحيحة وأن ننشئ جماعة أصح وأزهر وأسمح وأكثر نزوعاً إلى الحرية والتقدم من النظام الذى انتقدناه ونحن الذين نكره الماركسية الستالينية ينبغى علينا أن نقهره بوضع خير منه . ونواجه الجماعة شرقية الروح بجماعية أخرى غربية الروح . وأوقفنا العقل



الباطن في غرور فزعنا أن الغرب دائماً أرحب وأوضح تفكير وأدق عمل من الشرق فلكل أمة فترات إشراق وفترات عمية وليس ستالين أو الستالينية بداية الجماعة أو نهايتها في روسيا .

ونحن نبحث موضوعاً من المتعذر تحديده ومن الصعب أن نعرف إلى أي حد محت أو حجبتها الوطنية الروسية الجديدة . أو عبادة ستالين ، الشيوعية الروسية الفذة الإنشائية الدولية التي قالت بها الثورة . والعقل الروسى ليس طيعاً والكتب التي في متناول يد الشاب الروسى لا تزال ثورية ولم تحرف الكتب هناك وأخذت الحكومة الروسية في راديو موسكو ، منذ أحدث التفاهم بين ستالين وهتلر قلقاً عاماً ، توضيح للشعب الروسى بأنه لم يضح بشيء من مبادئ الثورة بهذا التفاهم مما يشهد بحجوية الرأى العام في روسيا . وقد يكون لتصادم تعاليم ١٩٢٠ وتعاليم ١٩٤٠ أثر في تحرير عقول الكثيرين . والروسيون يكلفون بمناقشة المبادئ والأفكار وكانوا يستطيعون ذلك أيام القيصر فهل يعجزون عنه أيام ستالين . وأهم موضوع مطروح على العالم اليوم هو هل تستشرق الجماعة أم تستغرب ؟ نريد ثورة واضحة كل الوضوح ، وثورتنا يجب أن تأخذ سبيلها في النور والهواء . وقد نضطر إلى الأخذ بالسوفييتية إذا لم ننتج جماعة أحسن منها ؛ وإنتاج جماعة أحسن أكثر احتمالاً من أن النظام الروسى لا يأخذ بتعديلاتنا ، ولا ينسى وطنيته المجددة ، ولا يهجر ما يمكن أن يهجره من ماركس وستالين ولا يندمج في الدولة العالمية الموحدة وبين هاتين القوتين المتعارضتين .



بين الثورة المبصرة والثورة الحجوبة العينين ، سيحدث ارتباك يرجع إلى الوطنية والتعصب والعناية المتعمدة الحقاء لأولئك الذين لا يريدون أن يمسروا وأكثر الناس ينتجون لأنفسهم أكثر مما ينتجون لغيرهم . ومن العبث أن نتوقع أن إدراك ما يتطلبه الموقف البشري ، وهو ما أوردناه في موضع آخر ، يقضى على المذاهب والتقاليد الممسك بعضها بخناق بعض والتي تحير اليوم عقل الجنس البشري والأقلون هم القادرون على تغيير آرائهم بعد الثلاثين أما الأكثرون فيتشبهون بآرائهم ويندفعون وراءها اندفاع الحيوان بفطرته وهم يفضلون الموت على تغيير طبيعتهم الثابتة .

وأشد المشكلات القانونية هو ما يصدر عنها للكنيسة الرومانية الكاثوليكية من مؤامرات مستمرة حققاء . إننى أتحدث عن القاتليكان ومحاولاته التدخل فى السلطة الزمنية وكثيرون من أصدقائى الكاثوليك أكسبتهم عقيدتهم شخصيات جذابة وخلقاً عظيماً ومن أحسن هؤلاء ه . ك شسترتون . ولكنى أظن أنه كان على دماثته قبل اعتناقه الكاثوليكية . فهناك أولياء وقديسون فى جميع الأديان وخارج الأديان ويرى الكثيرون أن القيام بفرائض الدين ضرورى جداً لتنظيم حياتهم . ويميل عدد كبير من غير المتمسكين بالفرائض إلى القول بأن الرفق والطيبة هما المسيحية وعلى هذا الأساس يقول الكاتب الكاثوليكي الفريد نويس إن فولتير كان مسيحياً طيباً وأنا لا أستعمل المسيحية على هذا المعنى لأننى أعتقد أن عمل الخير ليس احتكاراً وإذا كتبت عن المسيحية فاننى لا أقصد بها هؤلاء الأخيار



الطيبين وإنما أقصد بها عقيدة محددة ونظاماً صارماً . ويرجع إلى سلطان الكنيسة تأييد السياسة البريطانية الخارجية العشوم لفرانكو المسيحي السفاح في قلب نهضة أسبانيا الحرة وعلى البريطانيين والفرنسيين أن يحمّدوا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية على خطّهم الفاحش الذي جرّهم إلى الدفاع عن الحكومة البولندية المتعذر قيامها ومطالبها التي لا حق لها فيها . وقد أثرت هذه الكنيسة في السياسة البريطانية تأثيراً عميقاً مخالفاً وتشيكوسلوفاكيا وهي الآن تبذل قصارها في الإبقاء على الجفوة السياسية بين روسيا والعالم الغربي ومضاعفتها ، بنشر تلك الفكرة القائمة على الهوى وهي أن روسيا لا تؤمن بالله ، في حين أننا نحن الغربيين من أبناء النور نحارب مستبسلين للدفاع عن الصليب وعن القدرة الإلهية وعن بولندة الكبرى وعن سيادة الشعوب وعن الفلاح الصغير وصاحب الدكان وغير ذلك مما تحب أن تتصور أنه يؤلف المسيحية . ويمذل الفاتيكان جهده باستمرار على أن يحول الحرب الحاضرة إلى حرب دينية وهو يحاول بذلك أن يشرف الحرب وتستمر الكنيسة على ذلك حتى تنشب ثورة اقتصادية تغضب أموالها . وسرعان ما يزول سلطانها كعامل مؤثر في السياسة . ويتبعها سلطان الكنيسة الأنجليكانية وكثير غيرها من الفرق البروتستانتية مثال ذلك المعمدانون الأثرياء .

ولا تؤثر دعاية هذه الكنيسة في الشؤون البريطانية فحسب ولكنها تؤثر في شؤون غيرها كذلك فقد أصبحت فرنسا عند قيام الحرب عسكرية



كاثوليكية وقمعت الحزب الشيوعي دليلاً على كراهيتها لروسيا وإحتياطاً من جماعة بعد الحرب. و يصور الرسام الكاريكاتوري البلجيكي ديميكروز هتلر في صورة مخلوق ضعيف حزين يستدر الإشفاق في حين أنه يصور ستالين في صورة مارد نخيف له قرون وذنب ومع هذا كله فإن فرنسا وإنجلترا تحالفان روسيا وكل الظروف تدعوها إلى التفاهم العملي مع هذه الآن. وكان موقف روسيا من الحرب فاتراً مستهزئاً متعقلاً.

وكأنما لا تقودنا هذه الخطط الشاملة إلى شيء، فأنت تواجه الساسة الكاثوليك كما تواجه ساسة وستمنستر بهاتين الحقيقةين الجوهريتين وهما الغاء المسافة وتبدل المقياس. ولكن بلا جدوى فلن تحصل على فهم لهاتين الحقيقةيتين من رؤوس لا تنفذ الأفكار إليها. فهم إزاءها صم وعميان انهم لا يستطيعون أن يروا أنها تحدث تغييراً ما في عاداتهم العقلية الراسخة وإذا تحركت عقولهم لحظة فانهم يتمتمون بتعويدة سحرية يطردون بها ذلك الوميض. ماذا يفعل الشباب خيراً من قمع حاجياتهم الطبيعية في الحياة والعمل؟ وماذا تصنع الحياة المجردة مع النظر الديني؟

ويعد دعاة الفاتيكان الحرب جهاداً ضد التجديد والاشتراكية وحرية الفكر وهدفها إعادة سلطان الكهنوت ويحارب أبناؤنا ليساعدوا الدين على أن يحول بورعه بين القاريء والكتاب وبين الطفل والمعرفة وبين الزوج والزوجة وبين الأبناء والعشاق بينما يحارب المحاصون في الواقع لوضع حد للطغيان العسكري والقضاء على الحرب بالحرب. ولكن هؤلاء



المتعصبين يقلبون الوضع ويحاولون إظهار الحرب بمظهر الجهاد الديني ضد روسيا خاصة وضد الروح الجديدة عامة .

إن الكنيسة الكاثوليكية تجاهر بمقاومة الجهد البشرى وفكرة التقدم وتعوق هذه الجهود المتعارضة وتقعّد بل وتقضى على كل محاولة لحل مشكلة إيجاد جماعية معقولة في العالم . ولكنها لا تغير من الحقيقة الأساسية وهي أنه لا مفر من الدمار العالمي الحاضر إلا باتحاد الحركات الثورية الإنشائية في كل مكان وتنظيمها والتغلب على تعصب حرب الطبقات .



## الاتحاد

ولنتناول الآن بعض المقترحات الإنشائية الغامضة التي يبدو أنها تدور كثيراً في أذهان الناس في الوقت الحاضر. ويتجلى أساس هذه المقترحات في كتاب عنوانه «الاتحاد الآن» بقلم المستر كلارنس ك. شتريث. وهذا الكتاب هو الذي أبرز للعالم كلمة «الاتحاد» السحرية. «فديمقراطيات» العالم يجب عليها أن تتفق فيما بينها على نوع من التوسيع الدستور الاتحادى للولايات المتحدة (ذلك الدستور الذى أنتج حرباً من أشد الحروب الدموية في التاريخ كله) وعندئذ تستقيم أمورنا جميعاً.

فلننظر إن كان لهذه الكلمة «الاتحاد» أية قيمة في تنظيم الثورة الغربية. يبدو لى أنها ذات قيمة. فهي في ظنى قد تكون وسيلة للتحرر الفكرى لكثير من الناس الذين لولاها لظلوا يقاومون بغباء كل نوع من التغيير.

إن لمشروع الاتحاد هذا صبغة من التعقل. إنه يجتذب عدداً من ذوى النفوذ الذين يرغبون — بأقل ما يمكن من التكيف حسب الظروف الجديدة — أن يحتفظوا بنفوذهم في عالم متغير. وإنه ليجتذب بخاصة تلك العناصر التي يمكننا أن نسميها العناصر «الحرّة المحافظة» من



الطبقات الميسورة الحال في أمريكا وبريطانيا العظمى والأقطار الشمالية وذلك لأنه يضع أشد جوانب المشكلة تعقيداً — وهو الحاجة إلى اشتراكية جماعية — يضع هذا الجانب كله في قرار البحث ، حتى إنه ليتمكن إغفاله وهذا يمكنهم من أن ينظروا إلى المستقبل نظرة مشرقة آملّة ، بغير أن يكون هناك عائق جدي يمنعهم عما يشغلهم في الوقت الحاضر :

هم يظنون أن الاتحاد — إذا أحسن فهمه وتعريفه — قد يبعد زمناً طويلاً إمكان حدوث الحرب ، ويقلل من عبء الضرائب حتى تخف عنهم وطأة المطالب الفادحة التي يطالبون بها في هذه الأيام ، وحتى يستطيعوا أن يستأنفوا — ولو بقليل من الاقتصاد — حياتهم القديمة . وإذن فيجب أن تشجع كل ما يمنح هؤلاء القوم الأمل واحترام الذات ، ويحفظ بيوتهم من شُنع الذعر والمداراة وما إليها ؛ وسيجد أبنائهم في تلك الأثناء متسعاً من الوقت للتفكير ؛ وربما أمكن أن يُبحث مشروع شتريت ويمحّص ويضبط ، حتى تؤخذ منه خطة عملية صريحة لتحويل العالم إلى الاشتراكية .

لقد بحثت كلمة الديمقراطية بشيء من العناية في مصير الانسائه ، إذ كان يبدو في ذلك الوقت أن دعوة شبابنا إلى بتر حياتهم والمخاطرة بها في سبيل هذه الديمقراطية أمر قريب الاحتمال . وقد بينت أنها ما تزال مطمئناً ضئيل الخط من التحقيق ، وأن نضجها التام يتضمن الاشتراكية ويتضمن مستوى من التعليم والإرشاد لم يصل إليه حتى اليوم أي مجتمع في العالم .



أما المستر شتريث فيقرر فهمه للديمقراطية تقريراً أمثل حظاً من التجديد وأوفى حظاً من الجمال البياني . أو ان شئت فقل إنه تقرير أدنى إلى المثالية تقرير يعد مبالغة عنيفة حتى لو كان دعاية حرب . ومع بعد هذا التقرير عن كل دافع فعلى — وهى حقيقة يؤسف لها — فإن المستر شتريث يعضى عنه بغير أن يناقشه ، كأنما هو وصف للحقائق الماثلة فيما يسميه « ديمقراطيات » العالم . فهو يخال أنه يجد فى هذه الديمقراطيات « حكومة الشعب ، بالشعب ، وللشعب » .

وقد بحثت فى الكتاب الذى أسلفت ذكره هاتين المسألتين : « ما الديمقراطية ؟ » و « أين الديمقراطية ؟ » وحاولت هناك جهدى أن أنزل بالمستر شتريث إلى الحقائق الصعبة الخشنة فى هذه القضية . وسأضى الآن إلى مدى أبعد من التفصيل عند ما أختبر مشروعه .

إن « الديمقراطيات المؤسسة » عنده يجب أن تكون : الاتحاد الأمريكى ، وحكومة الشعب البريطانية ( وخاصة المملكة المتحدة ، ومستعمرة كندا الاتحادية ، وحكومة الشعب الاستراية ، ونيوزيلندا واتحاد جنوب أفريقيا . وأيرلندا ، والجمهورية الفرنسية ، وبلجيكا ، والاتحاد السويسرى ، والدنمرك ، والنرويج ، والسويد ، وفنلندا ) . وقد بينت فى ذلك الكتاب السابق أن هذه الدول لا تكاد توجد بينها ديمقراطية واحدة كاملة التطبيق واتحاد جنوب أفريقيا بخاصة مثل سىء خطر للاستبداد الجنسى . وأيرلندا هى حرب دينية بادئة وليست



قطراً واحداً بل قطران . ومن الملاحظ أن بولندا لا تدخل البتة في قائمة الديمقراطيات عند المستر شتريث . فقد وضع كتابه في سنة ١٩٣٨ عند ما كانت بولندا بلداً دكتاتورياً يحتل رغم أنف عصبة الأمم مدينة قلنا التي انتزعها من لتوانيا ، ومساحات واسعة من أراض غير بولندية غزاها من روسيا ، ونشأ تركسبها من تمزيق تشكوسلوفاكيا . ولم تصبح ديمقراطية — بالمعنى الاصطلاحي من هذه الكلمة ، ولفترة وجيزة — إلا قبل سقوطها في سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، حينما بلغ الحق بالمستر تشمبرلين أن جر الامبراطورية البريطانية إلى حرب خطيرة باهظة النفقات في سبيل بولندا . ولكنني أقول هذا في ثنايا الحديث . إن جميع هذه « الديمقراطيات المؤسّسة » الخمس عشرة (أو العشر) ليست ديمقراطيات على الإطلاق . وإذن فنحن نبدأ بداءة سيئة . ولكنها يمكن أن تجعل ديمقراطيات اشتراكية ويجعل اتحادها شيئاً حقيقياً واقعياً — وذلك بشمن . إن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية الروسية هو نظام اشتراكي اتحادى ، أظهر في العقدين الماضيين تكتلاً سياسياً وافر الحظ من النجاح ، مهما كانت الأشياء الأخرى التي فعلها أو قصر عنها .

والآن فلنساعد المستر شتريث على أن يحول « اتحاد » من أمنية نبيلة ولكنها نظرية إلى أبعد حد ، حتى يكون حقيقة حية . إنه يدرك أن هذا يجب أن يتم بشمن . ولكنني أريد أن أقول إن هذا الثمن أعظم كثيراً مما يتصور ، وإن التغير أبسط كثيراً وأعم كثيراً بل لعله أقرب منلاً مما



يتصوره أيضاً ؛ هذا إن كنت صادق الحكم على وجهة نظره . فهو يميل إلى اللجوء إلا المنظمات الإدارية الحاضرة ، ومن المشكوك فيه أن هؤلاء الناس هم الذين يمكنهم تنفيذ خطته . ومن الصعوبات التي يغض بصره عنها احتمال أن تأبى الإدارة الهندية تسليم حكم الهند ( وهو لا يذكر سيلون وبورما ) إلى الحكومة الاتحادية الجديدة ، التي ستكفل أيضاً — على ما أظن — بسكان جزر الهند الشرقية الهولندية ، الذين يُحكمون حكماً حسناً ويحيون حياة طيبة ، وبالإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية ، وبجزر الهند الغربية ، وهلم جرا . وهذا معناه أنه إن لم يكن يقترح ابتكار أسماء جديدة للإدارة الهندية وما إليها ، فهو يطلب ذروة عظيمة من الكفاءة والأمانة لدى موظفي الاتحاد الجديد . ومعناه أيضاً أخذ مساهمة هؤلاء الخمسةائة أو الستائة المليون من الشعوب السمرات — أخذ مساهمتهم الممكنة في النظام الجديد مأخذاً هيناً لا يتفق مع المثل الديمقراطية .

إن عدداً كبيراً من هؤلاء الناس لهم أذهان كالأذهان الأوربية المتوسطة أو خير منها . وإنك لتستطيع في جيل واحد أن تنقف العالم كله إلى مستوى خريج كمبردج — وهو ليس بالمستوى الشامخ جداً — إن كان لديك ما يكفي من المدارس والمعاهد والأجهزة والمعلمين . وقد جعل الراديو والسينما والجراموفون ، والتحسينات التي أدخلت على الإنتاج والتوزيع كليهما ، قد جعلت من الممكن أن يزداد مدى المدرس الموهوب وتأثيره ألف ضعف . ولقد طالما رأينا تركيز الاستعداد المربى ، ولكن



أحداً لم يحلم قط بتركيز الجهد التعليمي ، فلا أحد منا يرغب حقاً في أن يرى غيره من الناس يتعلمون ، إذ قد يظفرون بشيء من التفوق على نفوسنا الممتازة . لم لا نتغلب على هذه الغيرة البدائية ؟ لم لا نسرع — ونحن نستطيع ذلك الآن بما لدينا من قوى مادية — لم لا نسرع بتعليم هذه الودائع الضخمة غير المهذبة من المقدرة الإنسانية ؟ لم لا نلحق هذه الفكرة بفكرة الاتحاد الآن ؟ لم لا نقرر أن الاتحاد — حينئذ امتد — يعنى تعليماً قوياً جديداً : في البنغال وفي جاوة وفي حكومة الكونغو الحرة كما في تينيسيا أو چورچيا أو سكتلندا أو إيرلندا ؟ لم لا نقل بعض الإقلال من التفكير في « التحرير التدريجي » بالتصويت وتجارب الاستقلال المحلي وما إليهما من الأفكار القديمة ، ونكثر بعض الإكثار من التفكير في تحرير العقل ؟ لم لا نترك هذه الشقشقة القديمة عن الشعوب التي لم تنضج سياسياً ؟

هذه إحدى النواحي التي يمكن فيها إدخال شيء من التحسين على مقترحات المستر شتريث . فلننظر إلى ناحية أخرى يبدو منها أنه لم يتبين كل ما ينطوي عليه اقتراحه . سوف يكون لهذا الاتحاد العظيم نقود اتحادية ونظام اقتصادي اتحادي خال من الضرائب الجركية . فما الذي سيمرتب على هذا ؟ يخيل إلى أن ما سيمرتب عليه أكثر مما يبدو المستر شتريث . هناك ناحية من نواحي النقود يبدو أن أكثر الباحثين عاجز كل العجز عن إصهارها . إنك لا تستطيع أن تكون نظرية عن النقود أو تضع لها خطة ما بأن تنظر إليها مستقلة عن سواها . فالنقود ليست شيئاً



قائماً بذاته ، بل هي جزء فعال من نظام اقتصادى . والنقود تختلف طبيعتها باختلاف قوانين الملكية وأفكار الملكية في المجتمع . ففي سير المجتمع مثلاً نحو الجماعية أو الشيوعية تنبسط النقود . فالنقود لازمة في الشيوعية لزومها في أى نظام آخر ، ولكن وظيفتها هناك أبسط ما تكون ؛ فلو نال العامل أجره أشياء لما كان حراً في أن يختار من بين ما ينتجه المجتمع من بضائع . ولكن النقود تمنحه هذه الحرية . فالنقود تصبح الحافز الذى « يجعل العامل يعمل » ، ولا شيء أكثر من هذا .

ولكنك حالما تعدو السماح للأفراد بالحصول على بضائع يستهلكونها ، إلى السماح لهم أيضاً بالحصول على مواد لأنواع من الإنتاج غير الأنواع الرئيسية في المجتمع ، حالما تصنع ذلك تظهر مسألة القروض والاعتمادات ، وتصبح النقود أكثر تعقيداً . وكلما خُرر نوع من أنواع الإنتاج أو فرع من فروع العمل فأخرج من السيطرة الجماعية إلى العمل الحر أو إلى الاستغلال التجريبي ، عظم الدور الذى يلعبه النظام النقدي وزادت القوانين التى تحدد ما يمكن عمله بالنقود ، وما يمكن استداره منها من فائدة ، وقوانين الشركات وقوانين الإفلاس وما إلى ذلك . ولا بد أن تمنح الحكومة في أى نظام جماعى متقدم اعتمادات المشروعات التجريبية التى يرمى لها النجاح . فإذا كان النظام غير جماعى ، فإن العمليات النقدية التى يقصد منها الكسب لا بد أن تتسلل إلى النظام ويزداد تعقدها شيئاً فشيئاً ، وحيث يوكل معظم الجانب المادى من الحياة إلى النشاط الفردى



غير المنسق ، يزداد تعقد الآلة النقدية ازدياداً عظيماً ؛ ويصبح استعمال النقود عاملاً متزايد العِظَم في صراع المنافسة ، لا بين الأفراد والشركات فحسب بل بين الدول ويبيّن المستر شتريث نفسه في بحث ممتاز عن ترك قاعدة الذهب ، أن التضخم النقدي والتقلص النقدي يصبحان حيلتين في المنافسة العالمية . فالنقود تغدو ستراتيحية ، كما يمكن أن تغدو أنابيب البترول وخطوط السكك الحديدية ستراتيحية .

وإذا كان الأمر كذلك فمن الواضح أن وجود نقد موحد في الدول الاتحادية يعنى وجود حياة اقتصادية موحدة تشمل الاتحاد كله . وهذا مُضمّن أيضاً في نظام شتريث الاقتصادي الخالي من الضرائب الجمركية . فمن المستحيل أن يكون هناك نقد موحد إذا كان الدولار أو الجنيه أو غيرها يستطيع أن يشتري امتيازاً من الامتيازات في إحدى الدول ، ويحال بينه وبين كل شيء سوى شراء المواد الاستهلاكية في دولة أخرى . وإذن فلا بد أن يكون هذا النظام الاتحادى نظاماً اقتصادياً موحداً ، ولا يمكن أن توجد فيه سوى اختلافات طفيفة في الإشراف على الحياة الاقتصادية .

ولقد أوضحنا في الفصول السابقة القوى التي تقود إلى جماعية العالم أو إلى الكارثة . وينتج من هذا أن « الاتحاد » يعنى اشتراكية موحدة فعلاً داخل نطاق الاتحاد ، تؤدي باندماج دولة بعد أخرى إلى الاشتراكية العالمية . وجلى أننا هنا نحمل المستر شيريث إلى غاية أبعد من الغاية التي



يتبينها حتى الآن . إذ من الواضح أنه يخال أن قدراً كبيراً من العمل الحر الخاص سيظل قائماً في الاتحاد كله . ولا أدري إن كان يظن من الضروري أن نتجاوز ذلك القدر من الاشتراكية الذي تحقق فعلاً بالتقسيم الجديد<sup>(١)</sup> . ولكننا جمعنا من القرائن ما يدل على أن التسابق إلى الريج قد مضى أوانه ، على أن تلك الأيام الضيقة أيام « العمل الحر » قد انطوت إلى الأبد . ثم إنه مع إدراكه وتقريره الجلي لأن الحكومات جعلت من أجل الإنسان ولم يجعل الإنسان من أجل الحكومات ، ومع تصفيقه لتلك التصريحات العظيمة التي أعلنها المؤتمر الذي خلق الدستور الأمريكي ، حيث ارتفعت « نحن شعب الولايات المتحدة » فوق مساومة الدول المختلفة وأقامت الدستور الانحادي الأمريكي ؛ مع هذا فإنه يحاذر محاذرة عجيبة أن يُحل محل أية حكومة شرعية قائمة في العالم الحاضر حكومة أفضل منها . هو يحاذر أن يتحدث عن « نحن شعب العالم » . ولكن كثيرين منا قد أخذوا يدركون أن جميع الدول القائمة يجب أن تدخل في إنبيق الصهر ، ونحن نعتقد أننا مقبلون على ثورة عالمية ، وأن الحكومات المعاصرة قد تختفي في الصراع العظيم لإنشاء اشتراكية عالمية غربية الصبغة كما تختفي قبعات القش في شلالات نياجرا . على أن المستر شتريث يصبح عند هذه المرحلة شرعى العقل شرعية عجيبة . ولا أظنه يتبين قوى التدبير التي تتجمع ، ومن ثم فهو على ما أرى يتردد في تخطيط بناء على نطاق كالنطاق الذي قد يصبح ممكناً .



بل إنه ليجنب هذه الضرورة الواضحة ، وهي أن ملكيات بريطانيا العظمى وبلجيكا والنرويج والسويد وهولندا ، إن بقيت على الإطلاق في ظل الحكومة الاتحادية ، فلا بد أن تصبح شبيهة بالملكيات التابعة في الدول التي تكونت منها الإمبراطورية الألمانية السابقة : مجرد بقايا شرف . ولعله يرى هذا ولكنه لا يقوله صراحة . ولا أظنه تأمل سوق نيويورك سنة ١٩٣٩ أو مغزى الزيارة الملكية إلى أمريكا ذلك العام ، ثم قررهم من النظام البريطاني تركه لو أصبح اتحاد حقيقى واقعة . إن هذا النظام البريطانى . يجب أن يفقد كثيراً من « بريطانيته » . وقد كوّن المستر شترث مثاله الذى وضع به ذلك الدستور تكويناً قضائياً بحتاً ، مغفلاً التغيرات الأساسية في الظروف الإنسانية ، تلك الظروف التي يجب أن نوفق أنفسنا لها أو نفنى . فهو يفكر في الحرب قائمة بذاتها لا كانهجار ناشئ من تناورات عميقة . ولكننا إذا مضينا بفروضه الأولى حتى نهايتها اللازمة ، لم نحتاج إلى أن نعى كثيراً بدستوره النموذجى ذلك ، الذى يرمى إلى تحقيق التوازن العادل بين الدول الداخلة في تكوين الاتحاد . فمن الحتم أن يحل إلغاء المسافة محل الاتحادات ذات الوظائف المعينة ومحل التبعية لنظام إقليمي ، هذا إن لم يتحطم المجتمع الإنسانى تحطماً تاماً . وسوف تنصهر الأقسام الإقليمية في جماعة عالمية ويصير الصراع في اتحاد يتقدم دائماً نحو التوحيد صراعاً في أغلب الظن بين أنماط واتحادات من العمل مختلفة ممتدة في العالم كله .



يكفى ما قلناه عن الاتحاد الآله . إن من أظهر مزايا المستر شترث أنه  
جرؤ على أن يتقدم بمقترحات محددة نستطيع أن نقبض عليها . ولا أظن  
أن أوروبياً كان يستطيع إخراج كتاب كهذا . فقانونيته السياسية  
البريئة ، وفكرة الارتكان إلى الدستور التي قام عليها ، وإيمانه الظاهر  
بما للعمل الفردى الحر من نفع سحرى ، كل ذلك ينم عن روح الرجل  
الأمريكى ، بل إن شئت الرجل الأمريكى قبل التقسيم الجديد ، الرجل  
الأمريكى الذى لم تزد خبرته بالاضطراب الضارب بجذوره فى أوربا إلا  
إمعاناً فى أمريكياته ، إن كانت قد زادت شيئاً . وما زال كثير من  
الأمريكيين ينظرون إلى شئون العالم نظرة المتفرجين إلى حفلة رقص ،  
قد يجأرون محبذين ولكنهم لما يشعروا بمشاركة حقيقية ؛ فهم لا يدركون  
أن الأرض تميد تحت مقاعدهم أيضاً ، وأن الثورة الاجتماعية تشق سطح  
الأرض لتبتلعهم بدورهم . إن فكرة حدوث تغير أساسى فى أسلوب  
حياتنا لتبدد لأكثرنا — أو لأكثر من جاوزوا الأربعين على أية  
حال — فكرة غير مستساغة حتى إننا لنقاومها إلى اللحظة الأخيرة .  
والمستر شترث يبدى أحياناً شعوراً بالانهيار الاجتماعى المقبل وانحماً  
كشعورى ، دون أن يخطر بباله أن هذا الانهيار ربما كان نهائياً . قد  
تكون هناك عصور مظلمة ، وارتداد إلى الهمجية ، ولكن الإنسان لابد  
أن يعود فينهض فى وقت ما وبطريقة ما . وقد أخذ جورج برناردشو  
يقول مثل ذلك أخيراً .



وربما كان الأمر شرًّا من هذا .

إنى لم أكّد أقول كلمة تقرّظ في المستر شترث ، لأن المقام ليس مقام تقرّظ ، فقد كتب كتابه مخلصاً على أنه مساهمة حقّة في المؤتمر العالمى غير المنظم الذى يجرى الآن ، معترفاً بإمكان الخطأ ، طالباً النقد ، وقد عاجلت الكتاب بذلك الروح نفسه .

غير أن كلمته قد ذهبت لسوء الحظ إلى أبعد مما ذهب إليه كتابه . فكتابته يقول أشياء محدودة واضحة ، وهو — حتى لو خالفه المرء — جيد كنقطة للابتداء . ولكن أناساً قد التقطوا كلمة « الاتحاد » هذه ، وإن عقولنا لتضل بين الدعوات العديدة لتعضيد مشروعات اتحادية تتضمن أشياء جد مختلفه أولاً لا تتضمن شيئاً على الإطلاق .

فكل أولئك العشرات والمئات من آلاف القوم الظرفاء الذين كانوا منذ أعوام قليلة يوقعون موافيق السلام وما شابهها ، دون أن يبذلوا أدنى جهد ليفهموا ماذا يقصدون بالسلم ، هؤلاء القوم يرددون الآن هذه الكلمة السحرية الجديدة دون أن يكونوا بمدلولها أعلم . هم لا يدركون أن السلم يعنى تنظيمًا وموازنة المجتمع الإنسانى بالغى التعقيد والصعوبة ، حتى أنه لم يحفظ قط منذ أصبح الإنسان إنساناً ، ولا أن ما نجاهه من الحروب والفترات التمهيدية بين الحروب راجع إلى أن هذه الدورة أعظم بساطة وسهولة لجنسنا العنيد المختلط الفكر الشكاك المعتدى . إن هؤلاء الناس ما زالوا يظنون أننا نستطيع الحصول على هذا الوضع الجديد الرائع بأن نصفق له فحسب .



وإذ فشلوا في الحصول على السلم بتكرار كلمة « السلام » ، فهم الآن يرددون كلمة « الاتحاد » وكأنهم عثروا على ضالة منشودة . ولست أدري ماذا يحدث لذوى المراكز الخطيرة من الناس ، ولكن أديباً غير مسئول مثلى يجد نفسه غارقاً في بحر من الخطابات الخاصة المطولة ، والبطاقات الجنونية ، والرسائل التي تصدرها هيئات ناشئة ، والتصريحات التي يراد توقيعها ، والتبرعات التي يراد دفعها ؛ وكل ذلك باسم هذا التبراق الجديد الذي يشفي من كل داء ، وكل ذلك باطل مضيع كغناء الخراف الضالة . ولا أستطيع أن أفتح صحيفة بغير أن أجد أحد مشاهير المعاصرين وقد كتب إليها خطاباً يقول فيه بلطف وحزم وشجاعة تلك الكلمة نفسها ، وربما ألحق بها شذرات من الاتحاد الآلهي ، وربما أدخل عليها تنقيحات ثانوية ، ولكنه في أغلب الأحيان لا يتجاوز الفكرة مجردة .

وقد انبعثت شتى الحركات المثالية التي تستهدف السلام العالمي — تلك الحركات التي ظلت تتحدث إلى نفسها بهدوء سنوات وسنوات — لتتبع اللواء الجديد . وكان هناك قبل الحرب العظمى زمن طويل كتب للسيير ماكس وختر صديق الملك إدوارد السابع ، يدعو إلى ولايات متحدة أوروبية ، وتردد هذا القياس القرّار على الولايات المتحدة الأمريكية مرات كثيرة ؛ فجاء على سبيل المثال في عبارة ألقاها المسمو بريان وفي مشروع قدمه كاتب نمسوى ياباني هو الكونت كودزهوف كالسرجي الذي لم يقصر دون ابتكار علم للاتحاد . وأهم اعتراض يوجه إلى الفكرة



هو أنه لا تكاد توجد دول أوربية كاملة في أوربا ، عدا سويسرا  
وسان مارينو وأندورا ودول قليلة أخرى تمخضت عنها معاهدة فرساي .  
وجميع الدول الأوربية الباقية تقريباً تمتد إلى مدى أبعد بكثير من الحدود  
الأوربية ، من حيث السياسة أو من حيث الميول النفسية والصلات  
الثقافية ؛ فهي تجر معها أكثر من نصف العالم . فعشر الإمبراطورية  
البريطانية تقريباً في أوربا ، وأقل من عشر الإمبراطورية الهولندية ،  
وروسيا وتركيا وفرنسا أدنى إلى أن تعد غير أوربية منها إلى أن تعد  
أوربية ؛ وأسبانيا والبرتغال لهما صلاتهما المتينة بأمريكا الجنوبية .

وقليل من الأوربيين يفكرون في أنفسهم على أنهم « أوربيون » .  
فأنا مثلاً إنجليزى ، وشطر كبير من علائقي الفكرية والمادية وراء المحيط .  
وأنا أكره أن أقول عن نفسى إنى « بريطانى » ، وأحب أن أفكر فى  
نفسى على أنى عضو فى مجتمع عظيم إنجليزى اللسان ، يمتد بلا اعتبار  
للجنس واللون فى طول العالم وعرضه . ويضيق صدرى إذا دعانى  
الأمريكى « أجنبياً » — فالحرب ضد أمريكا تبدو لى أمراً جنونياً كالخرب  
ضد كورنوال . وإنه لمن أثقل الأمور على نفسى أن انفصل عن شعوب  
أمريكا وآسيا المتكلمة الانجليزية كى أسير تحت علم صديقى النموسى  
اليابانى إلى أوربا جديدة حزمت بعضها مع بعض فى « اتحاد » .

وعندى أنه أيسر جداً أن نخلق ولايات متحدة عالمية — وهذا هو



الغرض النهائى الذى يستهدفه المستر شتريث — من أن نوحّد ما يسمى بالقارة الأوروبية أى نوع من التوحيد .

وإنى لأجد أكثر هذه الحركات التى ترمى إلى خلق ولايات متحدة أوروبية ، أجدها تمشى فى ركاب فكرة الاتحاد .

فهذا صديقى وخصمى القديم اللورد دافيد دافيز قد أصابته العدوى فى هذه الأيام . وقد كان معنياً بمشكلة الأمن الدولى أيام أدمجت جمعية عصبة الأمم وغيرها من الهيئات الجامعة فى اتحاد عصبة الأمم ، وعند ذلك خطرت له فكرة أو تشبيه ، وكان الأمر عنده تجربة فريدة : تساءل لم يغدو الأفراد ويروحون فى المجتمعات الحديثة وهم آمنون كل الأمن أن يُعتدى عليهم أو يسلبوا ما لهم ، وليست بهم حاجة إلى التسلح . وأجاب إنه رجل البوليس . ومن ثم تساءل ماذا تحتاج إليه الدول والشعوب كي تمضى هى الأخرى فى شئونها ناعمة آمنة من الاعتداء والسلب ، وأجاب « البوليس الدولى » ، وبدأت له إجابة كاملة معقولة . وهو يرددها منذ أعوام . ولقد يلوح أحياناً أن القوة التى ستحمل هذه المسئولية الخطيرة هى عصبة الأمم ، وأحياناً أنها الإمبراطورية البريطانية ، وأحياناً أنها قوة طيران دولية . ولم يُذكر المقعد الذى سيجر الشرطى أمامه الجانى ولا مكان الحجز . ولما وجد سعادة اللورد أن نقدنا لا يجانس فكرته ، مضى بفكرته العظيمة ليفرضها وحده ، كأنه الطائر البحرى وجد بيضة . ولعله أن يستريح سنوات طويلة من ذكر « البوليس الدولى » ، ولكنى



لا أظنه أدرك أو سيدرك يوماً أن فكرته الوحيدة المهمة قد تركت — رغم إشراقها — مناطق شاسعة من المشكلة في الظلام . وإذا كان رجلاً عريض الثراء ، استطاع أن يسند حركة « حكومة الشعب الجديدة » وأن يطبع الكتب والمجلات التي تُنمَّق فيها فكرته الوحيدة العظيمة أكثر مما توسَّع هذه الفكرة .

ولكن لن أمضى في الحديث عن هذا الحشد المتنافر الذي يردد اليوم كلمة « الاتحاد » ، فكثير منهم سيكف عن التفكير ويسقط على جانب الطريق ، ولكن كثيراً منهم سيدأب على التفكير ، فإذا دأبوا على التفكير فسوف يصلون إلى إدراك حقائق المسألة إدراكاً كافيه وضوح أكثر وسيشعرون أن الاتحاد غير كاف .

يكفى ما قلناه عن الجبهة « الاتحادية » في عهدنا الحاضر . إنها إذا اعتبرت أساساً للعمل وهدفاً موضوعاً تبدو غامضة غموضاً لا أمل في كشفه ، متفائلة إلى حد يدعو إلى اليأس — إن صح هذا التعبير . ولكن لما كانت الفكرة تبدو هي السبيل لتحرير عقول كثيرة من الاعتقاد بغناء عصابة الأمم ، مرتبطة أو غير مرتبطة بالاستعمارية البريطانية ، فقد حق لنا أن نرى كيف يمكن إكمالها وتوجيهها نحو تلك الجماعة البصيرة التي تحيط بالعالم كله ، والتي تدفعنا دراستنا للأحوال القائمة إلى الاعتقاد بأنها هي القسم الوحيد لانهطاط النوع البشرى انخطاطاً تاماً .



## الطراز الجديد من الثورة

لنعد إلى غرضنا الرئيسى ، وهو أن نختبر السبيل لمواجهة هذه الثورة العالمية التى جاء نذيرها .

إن فكرة الثورة هذه لا تكاد تنفصل فى كثير من العقول عن المتاريس المقامة من أحجار الرصف ، والعربات المقلوبة ، والغوءاء الممزقة التى تسامت بما صادفته فى طريقها ومضت مستلهمة أناشيد التحدى ، والسجون التى اقتحمت وأخرج منها كل من فيها ، والقصور التى حطمت ، والسيدات والسادة الذين يُصطادون اصطيدا ، والرءوس المرفوعة على الحراب ما تزال جميلة رغم اقتطاعها ، والملوك الذين قتلوا أشنع قتل ، والمقصلة الدائرة ، وهياج شديد ينتهى بنفخة مدفع رشاش ...

كان هذا طرازاً من الثورة يمكن أن نسميه الطراز الكاثوليكي . ومعنى هذا أنه الطور النهائى لعصر من الحياة الكاثوليكية والتعليم الكاثوليكية . والناس لا يدركون هذا وسينقم بعضهم علينا لأننا نقرره عارياً ، ولكن الحقائق تحملق فى وجوهنا : حقائق معروفة لا سبيل إلى إنكارها . لقد كانت هذه الغوءاء الغاضبة الجائعة اليائسة الوحشية نتاج أجيال من الحسك الكاثوليكي والخلق الكاثوليكي والتربية الكاثوليكية .



كان ملك فرنسا « أقرب الملوك إلى المسيحية ، ابن الكنيسة البكر » .  
كان سيد حياة المجتمع الاقتصادية والمالية ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية  
تسيطر سيطرة تامة على حياة المجتمع الفكرية وعلى تربية الشعب . وكانت  
تلك الغوغاء هي النتاج . من العبث أن نردد أن المسيحية لم تجرب قط .  
لقد جربت المسيحية في أرقى صورها مرة بعد مرة . لقد جربت مدى قرون  
تجربة شاملة كاملة ، في أسبانيا وفرنسا وإيطاليا ؛ وإليها يرجع ما ابتليت به  
انجلترا في القرون الوسطى من قذارة ومن وباء ومجاعة مزمنين . لقد دعت  
إلى النقاء واسكنها لم تدع قط إلى النظافة . وكان للمسيحية الكاثوليكية  
في واقع الأمر السلطان غير المدافع في فرنسا أجيالا عدة . فكان لها أن  
تعلم كما تشاء وبقدر ما تشاء ، وسيطرت على الحياة العامة سيطرة تامة .  
ولا يمكن أن يقال إن النظام الكاثوليكي في فرنسا قد حصد شيئا لم يزرعه ،  
إذ لم يُسمح لغيره بأن يزرع . ولقد كانت تلك الغوغاء المروعة من الأوباش  
القتلة ، تلك الغوغاء التي ألقناها فيما صُوِّر عن ذلك العصر ، المحصول النهائي  
للعهد الكاثوليكي .

إن الرجعيين الكاثوليك يدينون أنفسهم بقدر ما يلعنون عامة الشعب  
الذين قاموا في الثورة الفرنسية الأولى . وأوقع تشويه للحقيقة أن يظهروا  
التعزز من المفصلة وعربات الاعداء ، كأنما لم تكن منتجات كاثوليكية  
صميمية ، وكأنها جاءت فجأة من الخارج لتخرب فردوساً وادعا . لقد كانت  
هذه الأشياء هي المرتبة الأخيرة من الظلم المنظم والجهل في عهد كاثوليكي صرف ،



وكان كل طور يتبع طوراً آخر بمنطق لا هوادة فيه ، وختم المارسلينز دائرة حياة الكاثوليكية .

ورأينا أيضاً في أسبانيا وفي المكسيك سيادة كاثوليكية تعليمية وخلقية غير مدافعة ، رأينا الكنيسة مطلقة اليد ، تنتج فورة من الحنق الأعلى مماثلة لتلك الصورة . فكانت الجموع هناك أيضاً قاسية مجدفة ؛ ولكن ليس للكاثوليكية أن تشكو ؛ فالكاثوليكية نحتهم . لقد أهين القسس والراهبات الذين كانوا معلمي الشعب الأوحدين ، واعتدى عليهم ، ودنس الكنائس . وبقينا لو كانت الكنيسة على شيء مما تزعمه لنفسها لأحبها الناس ، ولما كانت أعمالهم دالة على أنهم وجدوا التدنيس راحة وتفرجاً عما بنفوسهم .

ولكن هذه الثورات الكاثوليكية ليست إلا نماذج لطراز واحد من الثورة . ولا يلزم أن تكون الثورة عاصفة تلقائية من السخط على صنوف من الإذلال والحرمان لا تحتل ، بل يمكن أن تتخذ الثورة أشكالا أخرى مختلفة كل الاختلاف .

فهناك غير العصيان المنبعث عن السخط ، والذي انتهت إليه كل تلك الجهود من السيادة الكاثوليكية المطلقة ، نوع آخر يعارضه تمام المعارضة ، وهو ما يمكننا أن نسميه « الائتار بالثورة » ، حيث يشرع عدد من الناس في تنظيم قوى الازعاج والحنق ، وإرخاء قبضة قوات الحكومة ، حتى يهيئوا تغييراً أساسياً في النظام . والمثل الأعلى لهذا الطراز هو الثورة البلشفية



في روسيا ، بشرط أن تبسط قليلا ويساء فهمها شيئا ما . فهذه الثورة يراها رعاتها — حين ينزلون بها إلى نظرية فاعلة — تهيمته منظمة لحالة عقلية عامة ملائمة للثورة ، تصاحبها دائرة أضيق من الأعداد «للاستيلاء على السلطان» وقد عمد كثير من الكتاب اليساريين والشيوعيين الآخر — وهم شبان أذكىاء ليست لهم تجربة سياسية كبيرة — إلى إطلاق خيالهم في رسم مثل هذه المخاطرة ، وضموها الثورتين النازية والفاشية إلى مادة درسههم . إن البناء الاجتماعي الحديث ، بما فيه من تركيز قوى الإدارة والاستعلام والارغام في محطات الراديو ومركز التليفون وإدارات الصحف وأقسام البوليس ودور الصناعة وما إليها — هذا البناء الاجتماعي الحديث عرضة لمثل هذا الاستغلال الذي يشبه أعمال العصابات . فهناك جرى واندفاع واحتلال للمراكز الرئيسية ، واستيلاء منظم ، وحبس أو قتل لمن تخشى معارضتهم ، وإذا بالبلاد تواجه «أمراً واقعاً» ويتلو ذلك تجييش السكان الذين يضمرون شيئاً من المعارضة قل أو كثير .

ولكن لا يلزم أن تكون الثورة انفجاراً ولا انقلاباً . إن الثورة التي هي الأمل الوحيد أمامنا الآن للتخلص من الفوضى ، إما تحلصا مباشراً أو بعد فترة من الجماعة العالمية — هذه الثورة إن كان لنا أن نبليغها فلا بد أن نبليغها بطريقة غير هاتين الطريقتين . فالطريقة الأولى خطابية فوضوية مسرفة ، تؤدي في بساطة إلى بطل واستبداد ، والطريقة الثانية اثباتية مسرفة ، تؤدي بصراع غامض بين شخصيات ممتازة إلى نهاية تشبه تلك



النهاية . وليست إحداها بالجلاء أو الدقة اللذين يمكنان من الوصول إلى تغيير دائم في شكل الأحوال الانسانية ومادتها .

وقد يكون ممكنا أو لا يكون أن يوجد طراز من الثورة مختلف عن هذين الطرازين . وليس لأحد أن يقول إن هذا الطراز ممكن إلا إذا جرب ولكن يمكن أن يقال بشيء من الثقة إنه إن لم يتحقق فمستقبل البشرية مدى أجيال عديدة على الأقل مستقبل يدعو إلى اليأس . إن الثورة الجديدة ترمى في جوهرها إلى تغيير في الأفكار الموجهة ، وهي طريقة لم تجرب بعد تجربة كاملة .

وهي تعتمد لنجاحها على استطاعتنا أن نجعل عدداً كافياً من العقول يدرك أن الخيار أمامنا الآن ليس خياراً بين الاستمرار في الثورة وبين المحافظة التي تغلب عليها الرجعية على كل حال ، بل هو خيار بين السير في شؤوننا وتنظيم مجرى التغيير في أحوالنا بحيث تنتج نظاماً عالمياً جديداً ، وبين معاناة انهيار اجتماعي تام قد لا يرجى اصلاحه . ولقد كان حجاجنا كله أن الأمور قد وصلت إلى مدى لا يمكن أن تُردَّ معه أبداً إلى شيء من الشبه لما كانت عليه . وليس حالمنا أن نبقي حيث نحن بأقل استجابة من تفكيرنا أن نرتد من منتصف الغوص . يجب أن نمضي في هذه التغيرات الحاضرة إلى نهايتها ، وأن نوفق أنفسنا لها ، وأن نكيف أنفسنا طبقاً للغوص ، وإلا حطمتنا هذه التغيرات . يجب علينا أن نمضي في هذه التغيرات مثلاً يجب علينا أن نمضي في هذه الحرب التي



تمخض عنها فكر خاطئ ؛ يجب أن نمضي فيها لأننا لم نجد بعد نهاية ممكنة لها .

ولن تكون هناك طريقة تمكن من إنهاؤها حتى تتحدد الثورة الجديدة فإذا وقعت الآن بغير إقرار واضح يفهمه العالم كله ويقبله ، فإن نزال سوى شبح السلم . ولن ينقذنا من فظائع الحرب نفسها سلم مرقع الآن ، بل سيؤجل هذه الفظائع لا شيء إلا ليزيد هولاً في مدى سنوات قليلة . لن نستطيعوا أن تنهوا هذه الحرب بعد ؛ انكم تستطيعون على أحسن تقدير أن تنسئوها .

إن إعادة تنظيم العالم يجب أولاً وقبل كل شيء أن تكون عملاً « وحركة » أو حزباً أو ديناً أو عقيدة ، أو ما شئت فسمها نستطيع أن ندعوها « حركة الأحرار الجديدة » أو « الراديكالية الجديدة » أو ما شئت بعد . لن تكون منظمة محكمة تسلك الطريق الحزبي وما يليه ، بل ربما تكون قليلة الإحكام متعددة الأوجه ، ولكن إذا استطعنا أن نجعل عدداً كافياً من العقول في طول العالم وعرضه ، بلا نظر إلى الجنس أو الأصل أو العادات الاقتصادية والاجتماعية ، إذا استطعنا أن نجعل هذا العدد الكافي من العقول يعترف اعترافاً حراً صريحاً بأصول المشكلة الانسانية ، فسوف يتبع ذلك اشتراكهم المنتج في جهد علني واضح داع لإعادة تشييد المجتمع الإنساني .

فهم أولاً سيبدلون كل ما في وسعهم لينشروا ويتموا ذلك الفهم لنظام



العالم الجديد ، الذى سيعدونه الإطار العملى الوحيد لنشاطهم ، بينما يعملون ليكتشفوا ، ويشركوا معهم ، فى كل مكان كل من له القدرة العقلية على فهم هذه الأفكار الواسعة نفسها ، والاستعداد الخلقى لتحقيقها .

قد يسمى نشر مثل هذه الفكرة الرئيسية دعاية ، ولكنه فى الحقيقة تعليم . ولذا يجب أن يتضمن الدور الافتتاحى من هذا الطراز الجديد من الثورة تعليميا محدثا مضاعف القوة فى طول العالم وعرضه ، تعليميا سوف تكون نسبته إلى التعليم منذ مائتى عام كنسبة الإضاءة الكهربائية فى مدينة معاصرة إلى الشمعدانات ومصابيح الزيت فى ذلك العصر . إن الإنسانية لا تستطيع فى مستوياتها العقلية الحاضرة أن تصنع خيراً مما تصنعه الآن .

وليس بث الحياة فى التعليم ممكنا إلا إذا قام عليه أناس هم أنفسهم يتعلمون . فلا يمكن أن نفصل الفكرة الحديثة فى التعليم عن ربط هذا التعليم بالبحث الدائب . ولا نقول بالعلم فالبحث هو الكلمة الأفضل لأنها مطلقة من كل ما يوحى بالانتهاء الذى يعنى الجمود والموت .

إن كل تربية تنجح إلى الأسلوبية والعقم إذا لم تبق على اتصال وثيق بالتحقيق التجريبي والنشاط العملى ؛ ومن ثم يجب على هذه الحركة الثورية الجديدة المبتكرة أن تواصل فى الوقت نفسه نشاطا واقعيا اجتماعيا وسياسيا وأن تعمل عملا دائباً فى سبيل تجميع الحكومات والحياة الاقتصادية . ولن تكون الحركة العقلية إلا الجزء الممهّد والرابط فى الدفعة الثورية الجديدة وسوف يكون هذا النشاط الثورى متعدد الأوجه . وعلى كل من يشترك



فيه أن يفكر لنفسه ولا ينتظر الأوامر . ولن يعترف بدكتاتورية سوى  
دكتاتورية الفهم المستقيم والحقيقة القاهرة .

وإذا كان لهذه الثورة الصاعدة أن تتم ، فيجب أن نرحب باشتراك  
كل كائن بشري من أى نوع كان ، على أن تكون له القدرة العقلية على  
رؤية هذه الحقائق الواسعة في الموقف العالمى ، والصفة الخلقية لأداء شئ  
بصدده .

لقد أفسدت السيكلوجية الرديئة دفعات ثورية سابقة ، فأفسحت  
الجال لإشباع مركبات النقص الناشئة عن الفروق الطبقيّة . ولا ريب أنه  
من الظلم البين أن يكون أحد من الناس أحسن تعليماً أو أصح جسماً  
أو أقل خوفاً من العالم من أى أحد سواه . ولكن ليس هذا سبباً لثلاث تنفع  
الثورة الجديدة أكل انتفاع بصحة المجدودين وثقافتهم وقوتهم وشجاعتهم  
إن الثورة التى ننشدها سوف ترمى إلى محو مرارة الحرمان ، ولكنها لن  
تصنع شيئاً لكى تنتمى له . لن تصنع شيئاً من هذا على الإطلاق . فليذهب  
الماضى بمن ذهب .

وإنه لمن شرمنا فى التعاليم الماركسية إبحاؤها بأن جميع أهل الثراء  
والمقدرة الذين يعيشون فى مجتمع تلعب فيه المشروعات الشخصية غير  
المتناسقة دوراً كبيراً إبحاؤها بأن هؤلاء جميعاً لابد أن تفسدهم المزايا التى  
يتمتعون بها ، ويجب أن ينتزع ممتلكاتهم العامل والفلاح ، اللذين يصوران  
موهوبين فضيلة اجتماعية قادرة على تسيير ذلك الجهاز المعقد كله ، جهاز



المجتمع الحديث . ولكن الحقيقة الواضحة في المسألة هي التدافع غير المنتظم بين الأفراد والجماعات على السواء يهبط كل من يشترك فيه . كل امرئ ينحط ويفسد : الأفاق الذي يندل على جوانب الطرق ، وفلاح شرق أوربا الذليل الذي يقبل الأيدي ، والعامل المتسكع الذي ترشوه الحكومة بما تقدمه إليه من إعانة ؛ لا فرق بينهم وبين المرأة التي تتزوج طلبا للمال ، وبين مدير الشركة ، ورئيس المصنع ، ومالك الأرض المؤجر ، والمبعوث السياسى عند ما يتلوث الجو الاجتماعى يصاب كل انسان بالمرض .

قد تنتج الثروة والحرية الشخصية والتعليم — وهى تنتج فعلا — متلافين وظلمة ، على أنها قد تفسح المجال لعقول خالقة أو ذات قدرة على الادارة . وإن تاريخ العلم والاختراع قبل القرن التاسع عشر ليؤيد هذا . وعلى الجملة ان كان لنا أن نفترض في الإنسانية شيئا من الخير ، فأقرب إلى العقل أن نتوقع ظهوره حيث الغرض أعظم .

ومما يدحض الرسم الكاريكاتورى الماركسى للدوافع الانسانية — غير ما سبق — ذلك العدد الضخم من الشبان الذين نشأوا في بيوت من الطبقة المتوسطة أو العليا ، والذين يبرزون في الحركة اليسارية المتطرفة في كل مكان . إنه عندهم رد الفعل النفسى على « الاكتظاظ » والعقم الاجتماعى اللذين يجدونهما في آبائهم ومعشرهم . إنهم يلتمسون متنفسا لقدراتهم ، تلك القدرات التى ليست قدرات ربح ولكنها قدرات نفع وخدمة . وكثيرون منهم نشدوا حياة شريفة — وغالبا ما وجدوها ،



ووجدوا الموت معها — فى الصراع ضد الكاثوليك ومعاونيهم المراكشيين والفاشيين فى أسبانيا .

وإنه لمن سوء حظ الجيل الذين نشئوا فيه أن كثيرين منهم وقعوا فى حبال الماركسية الفكرية . ولقد كان من أسخف ما مر على معارضى المجتمعات من شبان اكسفورد المترفين . ليس فيهم واحد أضرت بجسمه عشرون سنة من التغذية السيئة والتربية الخاملة مثلى ، وكلهم يدعون أنهم خشنون ليس لأقصدتهم ب尼قات ، ويشيرهم استبدادى البرجوازي وهدوء سنى المنحدرة ، يشدون تلك العبارات المضحكة عبارات الحرب الطبقيّة ، يحفظون بها عقولهم من كل اعتراف بحقائق الحالة . ولئن دل هذا السلوك على أن التعليم الذى تلقوه فى مدارسهم التحضيرية والعامّة كان تعالما غير حافز للعقل بحيث ألغاهم مندفعين منفعلين فى مشاكل الحياة الجامعية ؛ إلا أنه لا ينتقص من هذه الحقيقة : وهى أنهم وجدوا فكره أن يهبوا أنفسهم لبناء المجتمع من جديد بناء ثوريا ، بناء يبشر بإنهاء ما فيه من تبذير هائل فى قوى السعادة والرقى ، فكرة شائقة ، وإن بدت امتيازاتهم الخاصة مضمونة إلى حد كبير .

إن هؤلاء الشبان ذوى النزعة اليسارية جديرون حين يواجهون بسوء الحال والازدراء والسنين المضیعة وبتر الأعضاء — والموت ينتهى سريعا ولكن المرء يستيقظ كل يوم على البتر مرة أخرى — الناشئة عن هذه الحرب التى تمخض عنها فكر خاطئ ؛ وإذ يواجهون بارتداد روسيا



إلى الأوتوقراطية ومحو أكثر المزايا التي كانت لأسرهم محواً مالياً حكومياً — إن هؤلاء الشبان جديرون حين يواجهون بكل ذلك أن يعودوا إلى درس امكانياتهم الخاصة درساً جديداً مفيداً ، وليس ذلك فحسب ، بل هم جديرون أيضاً أن يجدوا أنفسهم وقد انضم إليهم في ذلك الدرس عدد آخر جد كبير من أولئك الذين كان ينفرهم من قبل ما في رمزي المطرقة والمنجل من حماقة وخداع (عمال اكسفورد وفلاحيه ! ) وما في الماركسي المقلد من عصبية مثيرة . ولعل هؤلاء الشبان ألا ينتظروا حتى تأخذهم ثورة هائجة يخرجون منها ملطخين شعناً أولى وعى طبقى وعلى خطر دائم من أن يصفوا ؛ لعلهم يقررون — بدلاً من ذلك — أن يقبضوا هم على الثورة قبل أن تقبض الثورة عليهم وأن ينقذوها مما أصابها في روسيا من عقم والتواء فكري وخيبة أمل وحرمان .

وهذه الثورة الجديدة التي ننشدها يمكن أن تحدد ببضع كلمات . إنها (١) اشتراكية علمية صريحة ، مبنية على أساس علمي وموجهة توجيهاً علمياً . يضاف إليها (ب) إصرار دائم على القانون ، قانون مقام على إعلان جديد أعظم غيرة للحقوق الشخصية للإنسان . يضاف إليهما (ج) أكمل حرية في القول والنقد والنشر ، وتوسيع دائم للتنظيم التعليمي طبقاً لمطالب النظام الجديد المتزايدة . ولقد عجزت الثورة التي يصح أن نسميها الثورة الشرقية ، ثورة الدولية ، عن تحقيق النقطة الأولى من هذه النقاط الثلاث ولم تحاول قط أن تعالج النقطتين الأخريين .



ونقول بأعظم ما يمكن من الإيجاز : إن مثلث الاشتراكية والقانون والمعرفة هو إطار الثورة التي ما زال في امكانها أن تنقذ العالم .

الاشتراكية ! أنعدوا جماعيين حزمة واحدة ؟ قليل من الرجال في الطبقات المحدودة من مجتمعنا القديم المتداعي — قليل من أولئك الذين جاوزوا الخمسين — سوف يستطيعون أن يطمئنوا إلى هذه الفكرة . سوف تبدو لهم دعوة منفرة كل التنفير . ( متوسط عمر الوزير البريطاني في الوقت الحاضر يتجاوز الستين بكثير ) . ولكنها لا يلزم أن تبدو منفرة البتة لأبنائهم . سوف يصيهم الفقر على نحو من الأنحاء . إن النجوم في مسالكها كفيلة بهذا . وسوف يساعدهم ذلك مساعدة كبيرة على أن يتبينوا أن حياة إدارية منشئة أفضل بكثير من حياة لا تعدو الاستحواز والإنفاق .

إن الانتقال من الاشراف التنظيمي إلى المشاركة التنظيمية ثم إلى التنظيم المباشر لخطوات يسيرة . وإنها تتخذ الآن في شأن بعد آخر على كلا شاطئ الأطلنطي . تتخذ قهراً وغالباً بتخف كبير وأمام مقاومات قوية ولكنها متضائلة . وقد تصبح بريطانيا — مثل أمريكا — نظاماً اشتراكياً بغير ثورة قاطعة ، وبينما هي تنكر طول الوقت أنها تصنع شيئاً كهذا .

وليس في بريطانيا اليوم طبقة مثقفة متميزة . لكن في السلم الاجتماعي أعلاه وأسفله رجال ونساء قرءوا كثيراً ، وفكروا تفكيراً عميقاً في هذه المسائل الكبرى التي بحثناها . وقد تجتذب هذه الفكرة عن ثورة تنشئ علماً حراً جماعياً ، قد تجتذب هذه الفكرة عدداً كبيراً منهم ، وربما عدداً



كافيا لبدء ذلك السيل من العزم الذى سيتطور على اليقين من بداية واضحة محددة . إذن نضيق حدود بحثنا إلى ما يجب عمله الآن لإنفاذ الثورة ، ما يجب أن تعمله الحركة أو الحزب — بقدر ما يمكنها أن تتخذ صورة الحزب ، أما السياسة التى ستنتهجها . لقد أوضحنا فيما سبق لماذا يجدر بالرجل العاقل — من أى جنس أو لغة فى أى مكان — أن يصبح ثوريا « غربياً » . وعلينا الآن أن نستعرض وجوه النشاط المباشرة التى يمكنه أن يتجه إليها .



## السياسة للرجل العاقل

فلنقرر مرة أخرى النتائج العامة التي أدت بنا إليها مناقشتنا السابقة .  
 إن إنشاء اشتراكية عالمية متقدمة ، تحفظ فيها حريات كل فرد وصحته  
 وسعادته بقانون عام مبني على إعلان جديد لحقوق الإنسان ، وتقوم فيها  
 أقصى حرية للفكر والنقد والمشورة — هذا هو الهدف الواضح المعقول  
 أمامنا الآن . وتحقيق هذا الهدف تحقيقاً فعالاً هو وحده الذي يستطيع  
 أن يقيم سلباً على الأرض وأن يوقف سير الشؤون الإنسانية في الزمن  
 الحاضر إلى البؤس والدمار . ليس بمقدورنا أن نسرف في ترديد هذا  
 الهدف ترديداً واضحاً متكرراً ، إن مثلاً الاشتراكية والقانون والمعرفة  
 ينبغي أن يمثل الغرض العام للجنس البشري كله .

على أن اختلالات عصرنا العريضة المتزايدة العمق تفصل بيننا وبين  
 هذا الهدف . إن النظام الجديد لا يمكن أن يبرز إلى الوجود إلا بجهد جبار  
 فيه شيء من التنظيم ، جهد أرضن العناصر البشرية وأقدرها . ولا يمكن  
 أن يتم الأمر بسرعة مسرحية . إن هذا الجهد يجب أن يقدم إطار كل  
 نشاط اجتماعي وسياسي رصين ، ومعياراً عملياً « لجميع الاتحادات الدينية  
 والتعليمية . واسكن بما أن عالمنا متنوع مختلط إلى درجة عظيمة ،



فمن المستحيل أن نضيق حدود هذه الحركة الثورية الجديدة بحيث لا تعدو طبقة واحدة أو منطقة واحدة أو حزباً واحداً . إنها شيء أعظم من ذلك جداً . إنها ستنتج باتساعها — ولعلها ستطرح أيضاً — عدداً من المنظمات والأحزاب التي تلتقي كلها عند غايتها النهائية . ومن ثم لكي نستعرض النشاط الإجتماعى والسياسى للعقلاء النيرى الفكر اليوم فعلينا أن نعالج ذلك النشاط تفاريق ومن عدة أوجه . إن علينا أن نعالج تقدماً في جهة طويلة متنوعة .

فلنبداً إذن بمشكلة مواجهة أساليب عصرنا السياسية مواجهة رصينة ماذا يجب علينا أن نعمل بوصفنا مواطنين ناخبين ؟ إن تاريخ الديمقراطية المسماة بهذا الاسم نهائى وحاسم إلى حد كبير في هذه المسألة . فأساليبنا الانتخابية الحاضرة التي لا تترك للمواطن خياراً إلا بين إحدى ناحيتين ، ومن ثم تفرض عليه نظام الحزبين ، هذه الأساليب ليست إلا رسماً كاريكاتورياً للحكومة النيابية . وقد أنتجت على كلا جانبي الأطلنطى أجهزة حزبية كبيرة غبية فاسدة . كان لا بد أن يحدث هذا ومع ذلك فما يزال في عقول الشبان المهتمين بالسياسة شيء من التهييب حين يصل الأمر إلى النظر في التمثيل الطائفي . إنهم يرونه « خيالياً بعض الشيء » . هو على أحسن تقدير مخرج غير مباشر . والسياسيون الحزبيون يجاهدون لابقاء هذا التهييب ، لأنهم يعلمون أن التمثيل الطائفي ، بإدماجه الأصوات كلها في مجموعة ضخمة ، يخرج منها اثنا عشر عضواً أو أكثر ، هو فناء



للاطار الحزبي الخالص ، ودمار للمنظمات الحزبية .

ونظام هذا الجهاز في الولايات المتحدة أعقد من النظام البريطاني ، وأرسخ أصولاً من الفاحية الشرعية في الدستور الأمريكي ، ومن الناحية غير الشرعية في نظام التكسب بالسياسة . وقد يثبت هذا الجهاز أنه أعسر تحويراً وتجديداً من النظام البريطاني ، المبني على تقاليد طائفية بالية . ولكن البرلمان والكنجرس كليهما متشابهان تشابهاً جوهرياً في صفتيهما الأساسية إنهما يتجران في الألقاب والمنح والخير العام ، ولا يسيرهما سوى العنف ، ولا يتابعان حركات الرأي العام إلا عن بعد سحق . ومن الأمور التي تمكن المشاحة فيها كونهما أعظم استجابة إلى الشعور العام من الدكتاتوريين الذين نشهر بهم دون احتياط ، معتبرين إياهم مناقضين للديمقراطية . إنهما مبديان إهمالا شديداً لاستجابات الكتل الشعبية . وهما أقل من الدكتاتوريات احتفالاً بالشرح والإيضاح وأكثر منها تجاوزاً وتغاضياً . . . فالدكتاتوريون عليهم أن يتكلموا ويتكلموا ، وهم لا يلتزمون الصدق دائماً ولكن لا بد من الكلام . إنك لا تستطيع أن تتخيل دكتاتوراً أبكم .

وفي الأوقات التي يتفاهم فيها الضغط والأزمة كما في الوقت الحاضر ، يظهر ما في النظام الحزبي من البطء والحير والعجز والتبذير ظهوراً بينا يدعو إلى تنحية بعض ادعاءات من أسوأ ما يدعيه هذا النظام . وتعلق اللعبة الحزبية ، فتترك المعارضة الانجليزية موقف الدفاع عن مصالح المواطنين



العاديين إزاء أولئك الأوغاد الجالسين على كراسى الحكومة ؛ ويبدأ الجمهوريون والديموقراطيون يتخطون الحد الحزبى ليمحشوا الموقف الجديد . حتى الرجال الذين يحترمون الاحتمال البرلماني ( فى الكنجرس ) سوف يتركون هذا الاحتمال إذا أخافتهم أوضاع الأمور خوفاً كافياً . ويبدو أن ظهور حكومة قومية مؤلفة من جميع الأحزاب فى بريطانيا العظمى بعد زمن قصير أمر لا محيد عنه . وقد أصبحت بريطانيا العظمى اشتراكية فعلاً فى شهرين اثنين ؛ وعلقت السياسة الحزبية أيضاً ، مثلما فعلت الولايات المتحدة تماماً فى أزمة فرط الإنتاج الكبيرة . وحدث هذا فى كلتا الحالين لأن فساد النظام الحزبى وعجزه فاح نتهما إزاء الخطر المواجه . وإذا كانت الحكومة الحزبية قد رفعت يديها وولت فى كلتا الحالين ، فهل هناك سبب معقول لأن نتركها تعود ثانية بأى مظهر من مظاهر الانتصار أو استعادة القوة ؟ لماذا لا نمضى قدماً من الحالة التى نحن فيها إلى نظام اشتراكى أقل ارتجالياً ، تحت إدارة لا حزبية دائمة ، هى فى حقيقتها إن لم تكن فى شكلها حكومة اشتراكية دائمة ؟

وليس لدى هنا ما أشير به فيما يخص أمريكا . فأنا لم أحاول قط مثلاً أن أفكر فيما يستتبعه خلو الهيئة التشريعية من الوزراء المنفذين . وأنا أميل إلى اعتبار هذه النقطة من نواحي الضعف فى الدستور الأمريكى ، وإلى الظن بأن التقليد الإنجليزى الذى يعرض الوزير للأسئلة فى المجلس ويجعله المحرك الأول للتشريع الذى يمس قسمه وهو نظام أقل تعقيداً ومن ثم أعظم



ديموقراطية من النظام الأمريكي . ثم إن سلطات الرئيس ومجلس الشيوخ الأمريكيين ووظائفهما تختلف اختلافاً كبيراً عن السلطات المركزة التي للوزارة ورئيس الوزراء ، حتى أن الإنجليزى يظل — ولو عكف على دراسة نقط الدستور الأمريكى — فى حيرة من معرفة حقيقته الحية ، كشأنه لو عرضت عليه « نوتة » أو برا قبل أن يسمعها تعزف ، أو صورة آلة لم يرها قط تدور وقليل من الأوربيين من يفهم تاريخ ودرو ولسون أو مجلس الشيوخ الأمريكى أو عصابة الأمم التى دعا إليها ولسن . هم يظنون أن « أمريكا » التى يتخيلونها فرداً واحداً ضخماً ، قد فرضت هذا النظام على أوربا ثم راغت من مسئوليتها عنه عامدة ؛ ولن يظنوا أبداً سوى هذا . وهم يظنون أن « أمريكا » ظلت بعيدة عن الحرب حتى وصلت إلى الحد الذى لم يعد مقبولا فيه أن تستمر على هذه السياسة ، وأنها استقضتنا أثماناً باهظة للمؤن التى ساعدت على النصر المشترك ، وأظهرت السخط لأن الدين الناشئ عن ذلك لم يسدد . هم يتحدثون على هذا النمط بينما يتحدث الأمريكيون كأن لم يقتل أحد من الانجليز بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ ( مات منا فى تلك الفترة ٨٠٠.٠٠٠ ) حتى تقدم المتطوعون الأمريكيون النبلاء ليموتوا من أجلهم ( بلغ عدد هؤلاء الموتى ٥٠.٠٠٠ ) . أدر على سمعك مثلاً عنوان كتاب « كونسى هو إنجلترا تنتظر من كل أمريكى أن يؤدى واجبه » . إنه أحقر عنوان ، ولكن يبدو أن كثيراً من الأمريكيين يحبونه .



وعلى مكنتى بينما أكتب رسالة لسيد يدعى المستر روبرت راندل ،  
 حسنة الطبع والاخراج ، تدعوا إلى حل مشكلة أوربا بهجوم مشترك على  
 الولايات المتحدة فلن تمس بلدان بالاتحاد إلا إذا كان « عدو مشترك »  
 وعدو أوربا المشترك الطبيعى — كما يزعم المؤلف — هو الولايات المتحدة  
 إذن فلسكى نبرز إلى الوجود الولايات المتحدة الأوربية يجب أن نبتدىء  
 بنقض مبدأ مونرو . إني أعتقد بأمانة المستر روبرت راندل وحسن نيته ؛  
 وأنا واثق من أنه ليس مأجوراً للألمان بطريق مباشر ولا غير مباشر ،  
 سواء هو فى ذلك مع المستر كونسى هو أو المستر هارى إلمر بارنز ؛ ولكن  
 هل بمقدور أذكى رجل فى الدعاية النازية أن يبتكر فكرة أعظم من هذه  
 أثراً أو أكثر تفريقاً ؟ ...

ولكننى أبتعد عن موضوعى . لست أدرى كيف يشرع عقلاء أمريكا  
 فى أرخاء قبضة الدستور الأمريكى الخائفة ، وكيف ينتزعون الإشراف  
 على أمور بلادهم من أيدي أولئك السياسيين الثقلاء ذوى المسكر الرزين ،  
 بأشداقهم التى قواها مضغ « اللبان » والحديث الجمهورى ؛ أولئك السياسيين  
 الذين تضيف صورهم إلى صفحات « التايم » عنصراً من الفزع الحقيقى ؛  
 وكيف يبطلون نظام التكسب بالسياسة ، ويستكشفون ويعلمون لينشروا  
 خدمة مدنية صالحة ، قادرة على أن تستخلص دعوة التقسيم الجديد ، تلك  
 الوعود التى قامت أمامها العراقيل ، وعلى أن تدفع بأمرىكا إلى السير جنوباً  
 لجنب مع سائر العالم فى البناء الجديد . ولكننى أرى أن المرح وسلامة



التفكير اللذين ينطوى عليهما الأمر يكيون ، قديران على أن يجدا السبيل  
ويصنعا المستحيل ، ولا أكاد أشك في أنهم سينجحون في ذلك بطريقة  
ما ، كما لا أكاد أشك في نجاح بهلوان الشارع حين أراه على كرسيه الصغير  
وبساطه ، مر بظاً بالسلاسل ، ينتظر حتى تصبح في قبضته نقود تكافئ  
الجهد الذي سيبدله !

إن هذه الفروق في الطريقة والسرعة والتقاليد لشرعظيم على عالم  
الناطقين بالإنجليزية كله . فنحن الانجليز لانتحرم الأمريكيين حق  
الاحترام ، إذ أننا أميل إلى حسابهم جميعاً من طراز كونسى هو وهارى  
إلمو بارنز وبوراه ومن إليهم : مغرورين شكاكين تستبطنهم فكرة واحدة  
هى عدااء البريطانيين ، وعلينا أن نجاملهم بأى ثمن ، وهذا هو السبب في  
أننا لا نكون معهم البتة صرحاء وقحاء كما يستحقون . ولكن حبنا لهم  
يقل بقدر ضبطنا لأنفسنا . فالأخوان الحقيقيان يستطيعان أن يتشاموا ويظالا  
صديقين . ستكشف بريطانيا لكولومبيا يوماً ما جانباً من تفكيرها ،  
ولعل ذلك أن يجلو الجو . قال لى إنجليزى حانق منذ يوم أو نحوه : أسأل  
الله أن يظلاو بعيدين عن نهاية « هذه الحرب على كل حال » . وإلا فلن  
يعفونا أبداً من كلامهم ...

على أن شعبينا يسيران بسرعتين مختلفتين نحو غايتين متشابهتين . وما  
يرثى له أن يسبب اختلاف اللهجة وطريقة التعبير شراً أكثر مما يسببه  
اختلاف اللغة .



أما فيما يتعلق ببريطانيا العظمى فالأمور أقرب إلى الصق بي ، ويبدو لي أن هناك فرصة طيبة الآن للامساك بالبلاد وهي في حالة اشتراكية وتعليق للسياسة الحزبية ، وابقائها على هذا الحال . وهناك نتيجة منطقية — وإن كانت لا يلتفت إليها — لإيجاد حكومات قومية لا حزبية وتعليق المعارك الانتخابية ، وتلك هي أنه ما دامت المعارضة غير قائمة فيجب أن يحل محل النقد الحزبي النقد الفردي للوزراء ، وأننا ينبغي أن نعمل على استبعاد الأفراد الفاشلين في الإدارة ، بدلا من أن نستبعد الحكومات . لسنا بحاجة بعد الآن إلى أن نقصر اختيارنا لخدام الشعب على محترفي السياسة . ونستطيع أن نصر على اختيار الرجال الذين عملوا والذين يستطيعون أن يعملوا . ونستطيع أن نؤلف عند كل انتخاب جبهة من الناضجين غير الحزبيين ، يقبلون أن يصوتوا — إن كان ذلك ممكناً — لدخيل عليهم ثبتت كفاءته ، ويصرون على كل حال أن يقدم كل مرشح للبرلمان تقريراً واضحاً عن الخدمة المموسة التي قدمها للبلاد ، إن كان قد قدم خدمة ما ، وعن صلاته ببيوت المال وعلاقاته العائلية وما يحمله من لقب . ونستطيع أن نقدم هذه التفاصيل الضرورية إلى النشر وأن نعرف الصحف التي تأتي نشرها . وإذا لم يكن هناك رغم ذلك من نصوت له من غير السياسيين ، فإننا نستطيع على الأقل أن نحضر التصويت ونسود تذاكرنا الانتخابية جاعلين هذا نوعاً من الاحتجاج .

ونحن نرى في الوقت الحاضر كثيراً من المصالح العامة تضطرب شئونها



واحدة بعد أخرى بأشراف أحد الحزبين العتاق غير الأكفاء . والناس يتساءلون الآن لماذا لا يتولى السير أرثر سولتر شئون الملاحة المتحالفة مرة أخرى ، لا يدير السير جون أورشون التموين الغذائي ، ولا بأس بأن يساعد في ذلك السير فردريك كيبل ، ولماذا لا يتولى السير روبرت فانستيارث وزارة الخارجية ؟ نريد أن نعرف الأفراد المسؤولين عن عجز وزارتي الخبايا والدعاية ، حتى نستطيع أن نضطرهم إلى اعتزال الحياة العامة . إن من أيسر الأمور الآن أن نشر عدداً من المتحمسين بصيغة « الكفاءة لا الحزبية » .

وقد ضاقت صدور أكثر سكان الجزائر البريطانية بالمستر تشمبرلين وحكومته ، ولكنهم لا يستطيعون أن يواجهوا انشقاقاً سياسياً في زمن الحرب ، والمستر تشمبرلين متشبث بالحكم تشبث القواقع بالصخر . على أننا إذا لم نهاجم الحكومة كلها ، بل الوزراء منفردين ، وإذا نحينا واحداً بعد واحد ، فسوف نصل سريعاً إلى حكومة أعيد إليها الشباب ، حتى أن المستر تشمبرلين نفسه سوف يتحقق من أنه جاوز سن العمل ، وسوف يقبل أن يتركه . ويستطيع عدد جد قليل من دوى النزعة الاجتماعية أن ينظموا جمعية يقظة وتبقى هذه الأفكار ماثلة أمام كتلة الناخبين ، وتبدأ استبعاد العناصر الخاملة من حياتنا العامة . وستكون هذه المهمة مهمة ذات أهمية عظيمة في تجديدنا السياسي ؛ وسوف تؤدي مباشرة إلى بناء سياسى جديد أعظم إنتاجاً ، تمكن مواصلته بعد أن تنهار الحرب الحاضرة أو تنتهى على نحو آخر .



وتتبع هذه المعركة في سبيل الانتهاء من لحد النظام الحزبي الذي لم يعد صالحاً للعمل ، ضرورة البحث النشط عن الكفاءة الادارية والفنية في طول البلاد وعرضها . إننا لا نريد أن نضيع صبيهاً واحداً يمكنه أن يكون ذا نفع في العمل العظيم الذي أمامنا ، في إنشاء بريطانيا العظمى التي وجهتها مشاكل الحرب عندنا توجيهاً اشتراكياً مضطرباً مضيقاً ، إنشائها من جديد حتى تكون نظاماً منتجاً على الدوام .

وإننا لمحتاجون في الهرم التعليمي كله ، من قاعدته إلى قمة الدراسات العليا للمعلمين ورؤساء الادارات ولجان الأبحاث ، إلى إسراع في التفكير وأساليب التنفيذ لا نستطيع أن نحققه إلا حركة ذات حظ من التنظيم ، يقوم بها رجال أولو نقد بصير . إننا نريد الآن وزراء من الطراز الأول في كل قسم من الأقسام ، ولكن ليس بين نواحي الحياة العامة جميعاً ناحية أخرج إلى رجل ذى فهم خالق ، وابتكار جسر ، وقدرة إدارية ، من وزارة التعليم .

وقد سارت شؤون التعليم في الإمبراطورية البريطانية سيراً هادئاً غير معجل حتى أن القول بأننا لمحتاجون إلى جماعة تعليمية تهتدى إلى مثل هذا الوزير وتشد أزره ، هذا القول يبدو مروعا ، وهو على اليقين « سوقية » . إننا نريد وزيراً للتعليم يستطيع أن يهز المعلمين وينبهمهم إلى امتحان أنفسهم وأن يكهرب الأساتذة الشيوخ ويبعث فيهم حيوية الشباب أو يضعهم في أبراج عاجية ، وأن يبعث النشاط في الشبان منهم . لقد ظلت وزارة التعليم



في النظام الحزبي ركناً هادئاً لمن يستحقه من السياسيين الحزبيين، لسياسي  
حزبي يحترم مر بيته العجوز والموظفين الدائمين احتراماً ذليلاً. وبينما تستيقظ  
الأقسام الأخرى في أثناء الحرب يزداد القسم التعليمي هموداً. ولا يستطيع  
المرء أن يتذكر وزيراً بريطانياً واحداً للتعليم، مذ كان في تاريخ جزيرتنا  
وزراء للتعليم، كان له في التربية شأن ما، أو عمل من تلقاء نفسه عماله  
أدنى قيمة.

ماذا لو وجدنا مثل ذلك الوزير حياً، ولو وجدناه سريعاً، ولو تركناه  
يبرز ويقفز؟

هاك شيئاً آخر يجب عمله شيئاً أكثر ثورية من مجرد إلقاء القنابل على  
رجال البوليس الأبرياء، وسفك دماء الأمراء أو الأمراء السابقين الذين لم  
يرتكبوا إثماً. ومع ذلك لا يعدو هذا العمل مطالبة وزارة قائمة بأن تكون  
عند ما تدعيه لنفسها.

وثم اتجاه ثالث ينبغي أن توجه إليه إلتباهها أي جماعة عاملة، وهو  
الحيف والالتواء اللذين في أساليبنا الحاضرة لا تنزع ملكية الطبقات التي  
كانت فيما مضى ميسورة الحال. ويبدو أن المبدأ الوحيد الذي تمكن مراعاته  
هو الأرامل والأطفال أولاً. فالاشتراكية تتحقق الآن في بريطانيا وأمريكا  
على السواء لا بنزع ملكية صريح (بتعويض أو بغير تعويض) بل بزيادة  
الإشراف الحكومي وزيادة الضرائب. إن مجتمعينا الكبيرين كليهما  
يسيران نحو الاشتراكية بظهريهما ولا يلتفتان حولهما البتة. وهذا حسن



من حيث تحويل الخبرة الفنية خطوة خطوة من الاستخدام الفردى التام إلى الخدمة العامة . وهنا لا يكاد عمل المواطنين العقلاء الذين يريدون بذل المعونة أن يعدو جعل تلك العملية داعية بنفسها وجعل الجمهور مدركا لحقيقة التغير . ولكن هذه الطريقة سيئة من حيث أنها تحطم الادخار تحطيا غير مميز ، والادخار هو أضعف النقط فى النظام القديم . فالأموال المدخرة تتمتع بالإشراف على الأرباح وبالضرائب على السواء ، وقدرتها الشرائية تتأثر فى الوقت نفسه بتزايد التضخم النقدي تزايداً مطرد السرعة وذلك التضخم الذى هو سبيل التكيف الذى لا معدى عنه ، التماس المفلس لدى مجتمع أسرف فى الانفاق .

إن طبقة حاملى الأسهم تذبل وتموت ، والأرامل واليتامى ، والشيوخ الذين لم يعودوا قادرين على العمل والعجزة الذين لا يستطيعونه ، يتعرضون فى سنيهم المنحدرة لانكماش مؤلم فى سبل حياتهم ، هناك بلا ريب إنقاص من التبذير الاجتماعى ، ولكن هناك أيضا إفقار غير مباشر للرأى الحر والابتكار العلمى والفنى الحر ، بذبول الجمعيات والمعاهد ودور الخدمة التى لا حصر لها ، تلك التى أغنت حياتنا والتى كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على التبرعات التى يتطوع أصحابها بتقديمها . وكثير من العاملين فى العلم والفن والأدب عندنا فى الوقت الحاضر قد تعلموا من رصيد الأموال الخاصة المدخرة . وهؤلاء الناس الذين لا يستندون إلى أى سند اقتصادى ، والذين هم برغم ذلك صالحون كل الصلاحية للمجتمع يتعرضون عند قيام



ثورة حرب طبقية للانتقام منهم وإذلالهم . وذلك يعد نصراً كبيراً لمن هم دونهم من الجيران . ولكن ثورة يوجهها العقل قد تتسبب نظاماً للمساكنات السنوية والتعويضات ، ولمعونة الجماعات التي كانت فيما مضى جماعات ، بحيث تهون من التقليل الاجتماعي الناشئ من اختفاء طبقة من الرجال الأحرار المستقلين ، قبل أن تستطيع الطبقة الناشئة التي ستخلفها أى طبقة الموظفين السابقين ومديرى المصالح ومن إليهم ، أن تقف على قدميها وتنمى طرقها الخاصة فى السيطرة والعمل .



## إعلان حقوق الإنسان

فلنلتفت الآن إلى حلقة أخرى من المشاكل في السير بالعالم نحو  
الجماعية ، وهي حفظ الحرية في الدولة الاشتراكية ورد تلك الثقة التي  
يستحيل بدونها عادة السلوك السليم .

وتحطيم تلك الثقة هو شر من تلك الشرور التي يدرکها الناس إدراكا  
أقل جلاء مما يدرکون غيرها من شرور الدور الحاضر من التفكك العالمی .  
فقد كانت فيما مضى عهود رأينا فيها مجتمعات بأسرها أو على الأقل طبقات  
كبيرة من المجتمعات تسير في شئونها الخاصة بأمانة وصراحة وشعور من  
الشرف الشخصي . فكانوا فخورين بمزايا إنتاجهم ، وعاشوا طيلة أعمارهم  
على وفاق وتسامح مع جيرانهم . وكانت القوانين التي راعوها مختلفة  
 باختلاف الأقطار والعهود ، ولكن طبيعتها العامة كانت جعل الحياة  
المنظمة الخاضعة للقانون حياة ممكنة وطبيعية . لقد لُتمَّوا واعتقدوا وحق  
لهم أن يعتقدوا : « أن هذا الشيء ( أو ذاك أو سواها ) صواب . أفعل  
الصواب فلا يمسك شيء إلا أن يكون مصيبة شاذة غريبة . إن القانون  
يضمن لك ذلك . إفعل الصواب فلا يسلبك شيء ولا يهزمك شيء . »  
لم يبق في أي مكان من العالم الآن كثير من هذا الشعور ، وباختفائه



ينحط سلوك الناس إلى تدافع مذعور : إلى الغش ، والخداع ، والمنظمات العصابية ، والتخزين الاحتياطي ، والإخفاء ، وكل تلك السفلة والشعور غير الاجتماعي الذي هو النتاج الطبيعي لعدم الأمن .

وسوف يتحقق لعدد متزايد من العقلاء ، إزاء الفرع الخلقى الذي كدنا نبلغه الآن ، أن إعادة الثقة ضرورة عاجلة . وكلما تقدمت الاشتراكية وتركزت السلطة الإدارية ، زادت الحاجة إلى حماية الأفراد حماية فعالة من ضجر الموظفين الحسنى النية أو الضيق العقول أو القساة القلوب ، بل من كل إساءة في استعمال النفوذ ، تلك الإساءة التي لا بد أن تقع في مثل هذه الظروف لجنسنا النزق الشرير .

ولقد نال العالم الأطلنطي فيما مضى نجاحاً ممتازاً في علاج هذه الناحية من الطبيعة البشرية . وطريقتنا المميّزة التقليدية يمكن أن تسمى طريقة الإعلان الأساسي . فقد أبرزت شعوبنا الغربية — بفرزة طيبة فيها — قرارات للحقوق ، من « الميثاق العظيم » إلى ما بعده ، لتقيم حداً دفاعياً متيناً بين المواطن وبين النمو الضروري في السلطة المركزية .

ولسوف يحبط تنظيم الجماعة الشاملة العميقة المفروضة علينا الآن ، سوف يحبط هذا التنظيم إن لم يصبح بإعلان واق جديد لحقوق الإنسان ، إعلان يجب أن يكون أوسع مدى وأكثر تفصيلاً ووضوحاً من كل الاعلانات التي سبقته ، تبعاً للتعقد المتزايد في البناء الاجتماعي . مثل هذا الإعلان يجب أن يصبح القانون الأساسي العام لكل المجتمعات



التي يضمها الميثاق العالمي ، وينبغي أن يوصل بأهداف الحرب التي تعلنها  
القوى المحاربة الآن ، ينبغي أن يصبح الحقيقة الأولى في كل اتفاق ، ينبغي  
أن يوضع أمام الدول المحاربة الآن لتقره أو تتوقف فيه أو ترفضه .

ولكن أوضح قصدي من هذا أكمل توضيح ممكن ، دعوني أعرض  
عليكم مسودة لهذا الإعلان المقترح لحقوق الإنسان ، وأعني بالإنسان طبعاً  
كل فرد من النوع الإنساني ذكراً أو أنثى . وقد حاولت أن أضمنه  
كل شيء جوهري وأن أحذف منه كل النتائج الثانوية التي يمكن استخراجها  
من مقرراته العامة . إنه مسودة أعرضها عليكم . ولعل بعض النقط مهمة  
فيه ولعل فيه تكراراً أو مقررات لا حاجة إليها .

« بما أن الإنسان يأتي إلى هذا العالم عن غير ارتكبه ، وبما أنه  
دون ريب وريث مشترك لكل مخلقات الماضي ، وبما أن هذه المخلقات تكفي  
— وزيادة — لتبرير هذه المطالب التي تطلب له هنا ، فينتج من هذا :  
١ — أن لكل إنسان بلا تمييز بين الأجناس أو الألوان أو العقائد أو  
الآراء ، الحق في الغذاء والكساء والعناية الطبية والرعاية اللازمة لتحقيق  
جميع إمكانيات نموه الجسمي والعقلي ، ولإبقائه في حالة من الصحة منذ  
ولادته إلى وفاته .

٢ — أن له الحق في التعليم السكافي لجعله مواطناً نافعاً آبهاً ، وأنه ينبغي  
أن يُيسر له التعليم الخاص الذي يمنحه تكافؤ الفرص لتنمية مواهبه المتميزة  
في خدمة الجنس الإنساني ، وأنه ينبغي أن يمكن طوال حياته من الإطلاع على



شئون المعرفة العامة، ويتمتع بأعظم قسط من حرية النقاش والاجتماع والعبادة.  
 ٣ — أن له أن يزاول أية مهنة مشروعة، ويكافأ عليها بقدر الحاجة إلى عمله، والزيادة التي يضيفها إلى الخير العام. وأن له الحق في العمل والمكافأة عليه، وحرية الخيار كلما عرضت له أعمال مختلفة. وله أن يقترح عملاً لنفسه، وأن يُنظر في طلبه فيقبل أو يرفض.

٤ — أن له الحق في أن يشتري أو يبيع، بلا تفریق أو استثناء، أي شيء، يسمح القانون ببيعه أو شرائه، بالكميات والتحفظات التي تتفق مع الصالح العام. (وهنا أضيف تعليقاً على الهامش. يجب ألا يغرب عن البالن أن الشراء والبيع للحصول على دخل وربح لن يكونا غير ضروريين فحسب بل مستحيين أيضاً. وسوف تختفي البورصة بالضرورة بعد أن عاشت نحواً من أربعائة عام؛ سوف تختفي باختفاء كل دافع معقول نحو التجميع الضخم أو نحو التخزين إلقاء الحرمان والعوز. وقد تكون هناك — قبل عصر الجماعة الثامنة بزمان طويل — حماية لما يدخره الأفراد بغية الإستهلاك المؤجل، وذلك بتنمية نظام « الترس » وجعله إدارة عامة. وقد يُجعل لهم الحق في نسبة من الفائدة تعوض ذلك التضخم النقدي العالمي، الذي سيستمر في مجتمع متزايد الثراء. أما التورث والهبة في مجتمع جعلت فيه وسائل الإنتاج والاستغلال أيّاً كان ملكاً للمجتمع، فلا تكاد تشمل غير أشياء أقرب إلى الصغر والجمال والمعزة، وهي أشياء تهب السرور لمن ينالها ولكنها لا تهبه امتيازاً اجتماعياً غير عادل.)



٥ — أن له الحق في حمايته وحماية ممتلكاته الشخصية — التي حصل عليها بطرق مشروعة — حماية بوليسية وقانونية مما قد يراد به من عنف أو حرمان أو قسر أو إرهاب .

٦ — أن له أن يغدو ويروح في أرجاء العالم حراً على نفقته الخاصة . وأن منزله الخاص أو مسكنه الخاص أو حديقته التي لا تتجاوز مساحتها حداً معقولاً — تلك هي قلعته التي لا يصح أن يدخلها أحد إلا بإذنه ، ولكنه يملك الحق في أن يذهب ويجيء في أي ريف أو مرج أو جبل أو مزرعة أو حديقة كبيرة أو ما إلى ذلك ، أو على بحار العالم وبحيراته وأنهاره ، حيث لا يكون وجوده ضاراً ببعض المصالح ، ولا خطراً على نفسه ، ولا مسبباً شيئاً من الضيق الحقيقي لمواطنيه .

٧ — إن لم تقض سلطة موثوق بحكمها أن رجلاً من الناس خطر على نفسه وعلى غيره لشذوذ عقلي فيه — وهو حكم يجب أن يؤيد كل عام — فلا يجوز أن يسجن هذا الرجل مدة تزيد عن ستة أيام بغير أن يتهم بمخالفة واضحة للقانون ، ولا عن ثلاثة أشهر بغير محاكمة علنية . فإذا لم يحاكم ولم ينفذ عليه القانون قبل انقضاء هذه الفترة الأخيرة ، فيجب أن يطلق سراحه . كذلك لا يجند في الجيش أو البوليس أو لأية خدمة أخرى لا تطيب نفسه بالقيام بها .

٨ — أن الإنسان وإن كان خاضعاً لما يوجهه إليه إخوانه من نقد حر ، فسوف يتمتع بحماية كافية من كل ما قد يسوءه أو يسيء إليه ، من



كذب أو سوء عرض للوقائع . وسوف يكون لكل إنسان أن يطلع على جميع السجلات والتقارير الإدارية التي تكتب عنه . لن توجد سجلات سرية في أى قسم إدارى . سوف تكون جميع السجلات في متناول الرجل الذى تتعلق به ، وسوف تكون خاضعة للتحقيق والإصلاح إذا أقام هو الدليل على خطئها . ليس السجل إلا مذكرة ، ولا يمكن أن يتخذ دليلاً بغير أن يؤيد تأييداً صحيحاً في محاكمة علمية .

٩ — ألا يفرض على أحد أى نوع من البتر أو التعقيم إلا بموافقته واختياره ، عن محض إرادته ؛ ولا للهجوم الجسمى إلا لرد إعتدائه ؛ ولا للتعذيب أو الضرب أو أى عقاب بدنى آخر . ولا يفرض عليه السجن مع فرط السكون أو الضوضاء ، أو الضوء أو الظلام ، فيسبب له ذلك أذى فى عقله ؛ ولا السجن فى أمكنة موبوءة أو مملوءة بالحشرات أو ضارة بالصحة من أى وجه آخر ؛ ولا أن يوضع فى صحبة أشخاص قذرين أو حاملى عدوى . ولا يطعم قسراً ولا يمنع من الصوم عن الطعام إن كان يريد ذلك . ولا يقهر على أخذ الدواء ولا يعطاه بغير معرفته وموافقته . وأن أقصى العقوبات التى يجوز فرضها عليه هى السجن الصارم فترة لا تتجاوز خمسة عشر عاماً أو الإعدام .

(وهنا أحب أن أشير إلى أن هذا لا يمنع أى قطر من إلغاء عقوبة الإعدام . كذلك لا أقرر حق كل إنسان فى أن ينتحجر ، إذ لا أحد يستطيع أن يعاقب إنساناً على ذلك العمل ، فقد أفلت مُرتكبه .



أما التهديد بالانتحار ومحاولات الانتحار العاجزة فتندرج تحت جنس آخر مختلف كل الاختلاف . فهي أفعال محزنة غير لائقة ، يمكن أن تصبح بسهولة مضايقات إجتماعية خطيرة ، تحق للمواطن العادى الحماية منها ) .

١٠ — أن تزداد النصوص والمبادئ المضمنة فى هذا الإعلان بياناً فى قانون للحقوق الإنسانية الأساسية ، يُيسّر الحصول عليه لسكل إنسان . ولا يضيق من حدود هذا الإعلان ولا يغير بأى تعلقة كانت . إنه يتضمن جميع الإعلانات السابقة للحقوق الإنسانية . وهو منذ الآن القانون الأساسى لعصر جديد للإنسانية فى طول العالم وعرضه .

وكل معاهدة أو قانون يمس هذه الحقوق الأولى لا يقيد أى إنسان أو مقاطعة أو جزء إدارى من المجتمع ، ما لم تعمل تلك المعاهدة أو ذلك القانون علناً بموافقة كل مواطن بالغ يعنيه الأمر ، سواء أ كانت هذه الموافقة فعلية أو صامتة ، بأغلبية تصويت مباشر من المجتمع الذى يمسّه الأمر ، أو بأغلبية أصوات ممثليه الذين انتخبوا انتخاباً علنياً . ويجب أن يلزم الناس رأى الأغلبية فى شئون السلوك الجماعى . ولا توكل إلى أية هيئة إدارية — بحجة الضرورة العاجلة أو سهولة الاجراء أو ما شاكل ذلك — سلطة تقرير الجرائم أو زيادة تحديد مفهومها ، أو وضع القوانين الفرعية التى تخرق الحقوق والحريات المقررة هنا . يجب أن يكون التشريع كله علنياً ومحددًا . والمعاهدات السرية لا تقيد الأفراد ولا المنظمات



ولا الجماعات . ولا يجوز إصدار أوامر من مجالس شورية أو ما يشبهها ، لتوسيع تطبيق القانون . ليس هناك مصدر للقانون سوى الشعب . وبما أن الحياة تجري جرياناً مستمراً إلى مواطنين جدد ، فليس لجيل من الناس أن يسلم القوة التشريعية الطبيعية في البشر ، كلها أو بعضها .

هاك شيئاً تستطيع العقول التي تفوقني ذكاء أن تصقله وتحيل منه إعلاناً ذا أثر ، يبدأ بدءاً منتجعاً فيما يحتاج إليه العالم الآن من إعادة الثقة ، وكثير من أجزائه يمكن أن يصاغ في عبارات أجود ، ولكنني أظنه يشمل ما في الانسانية عموماً من إرادة الخير ، ويشملها من قطبها إلى قطبها . إنه على اليقين ما نريده نحن جميعاً لأنفسنا . ولعله يصبح أداة عظيمة القدرة حقاً في الطور الحاضر من الأحوال الانسانية ؛ إنه ضروري وإنه ممكن القبول . أود أن أقول : ضمنوه فيما تعقدونه من معاهدات السلم وما تضعونه من مواد الاتحاد ، فيكون لديكم أساس متين لا يزال يزداد قوة ، أساس للحياة العالمية الجريئة في نظام العالم الجديد . لن تنالوا هذا النظام بغير وثيقة كهذه الوثيقة . إنها المفتاح الناقص لمشاكل معاصرة لا تنتهي .

وإذا لم نكن نحن الديموقراطيات الحاضرة نحارب من أجل هذه الحقوق الانسانية العامة ، فلأى شيء — بإسم النبلاء والسادة ، بإسم التاج والكنيسة الرسمية ، بإسم المدينية ، بإسم التيمس ونادى الجيش والأسطول — لأى شيء بإسم هؤلاء جميعاً نحارب نحن الرجال العاديين من الشعوب البريطانية ؟



## السياسة الدولية

والآن وقد أتممنا صورتنا لما يجدر بالعناصر الإنسانية الأكثر رصانة أن تعمل من أجله وأن تأمل فيه ، وقد أزحنا عن خيالنا أشباح الحرب الطبقيّة ودولة العبودية الدكتاتورية ، الآن وقد فعلنا ذلك فإننا نستطيع أن نهجم على العقد البارزة في الصراع الدولي والعلاقات الدولية ، ولدينا بعض الأمل في حلها جميعاً . فلو تحققنا وأيقنا حتى أعماق نفوسنا أن إقرار العالم على أساس تلك الأفكار الثلاثة : الإشتراكية والقانون والمعرفة ، ليس شيئاً ممكناً ومطلوباً فحسب ، بل هو الطريق الوحيد للنجاة من وهدة الشقاء التي لا تزال تزداد عمقاً — لو أيقنا بذلك لعرفنا أن موقفنا إزاء سخط ألمانيا ، أو إزاء أغراض أمريكا وروسيا ، أو إزاء فقر الهند وجوعها ، أو إزاء مطامح اليابان ، هو موقف انتهازي صريح . لا واحد من هذه الأشياء يعد نتيجة أولى . ونحن العقلاء لا يجب أن يغيب عن نظرنا هدفنا النهائي ، ولكن طرقنا للوصول إليه يجب أن تتنوع تبعاً لتذبذب الشعور الوطني والسياسة الوطنية .

وهناك فكرة الاتحاد التي قدمت نقداً لها في الفصل السابع . ومقترحات شتريت — كما بينت هناك — إما أن تقودك إلى مدى أبعد مما ترمى إليه



أولا ترسو بك على شيء ما . فلنفترض أننا نستطيع تقوية مقترحاته حتى نجعل اتخاذ نظام اقتصادى اشتراكى والتزام إعلان الحقوق ذاك ، شرطين أساسيين لكل نظام اتحادى ، وعندئذ تصبح مسألة أى المجتمعات يمكن أن يبدأ فيها النظام الاتحادى مسألة مناسبة واتجاه فكري ملائم . بل إننا نستطيع أن نشجع التجارب الاتحادية الضعيفة التى لا تجرؤ على أن تذهب إلى هذه المرحلة من التعقل ، واثقين أنها إما أن تقود إلى الزوال وإما أن تصبح حقائق حرة تتفق مع ذلك النموذج الذى يجب أن يصير إليه العالم كله فى النهاية . ويمكن أن تقوم وراء كل محاولة خائفة من هذا النوع دعاية تعليمية نشيطة منتجة .

ولكن عند ما يصل البحث إلى مقدار ما نستطيع أن نتوقعه من أى قطر أو مجموعة من الأقطار ، من مساهمة فى تشييد نظام عالمى مطابق للعقل ، وإلى نسبة هذه المساهمة إلى غيره من الأقطار ، أو المجموعات ، فليس بمقدورنا عند ذلك إلا أن نعتمد على الحدس وعلى الأحكام العامة عما يسمى « بالشخصية الوطنية » . فنحن أمام كمثل شعبية يمكن أن يتأثر اتجاهها إلى حد كبير بصحيفة بارعة أو بشخصية ممتازة فى قدرتها على الامتناع أو التوجيه ، أو بتغيرات فى تيار الحوادث توشك أن تكون تغيرات عرضية . فأننا مثلا لا نستطيع أن أعين إلى أى حد يمكن أن توافقنا جمهرة المتعلمين الأكفاء فى الأمبراطورية البريطانية الآن على فكرتنا فى قبول الجماعية والعمل لخدمتها ، أو إلى أى درجة من القوة



يمكن أن تصل مقاومتهم ومخافتهم . فهذا بلدى وأنا حقيق بأن أعرفه  
خيراً مما أعرف سائر البلدان الأخرى ، ولكنى لا أعرفه معرفة هادئة  
ولا عميقة بحيث أستطيع أن أقرر ذلك . ولست أدري كيف يستطيع أى  
إنسان أن يتنبأ بهذه الإندفاعات والدورات فى استجابات السكتل .

والدعوة إلى حركات عقلية وإدارية كالتى أتكلم عنها هنا ، هى نفسها من  
بين الأسباب المؤثرة فى التكيف السياسى ، وهؤلاء الذين فى قلب المعمة  
هم أعجز الناس عن تقدير كيف تسير المعمة . إن كل عامل فى الشئون  
السياسية والدولية هو عامل متذبذب ، ومن ثم فالرجل الحكيم لا يعاق  
أمله على أى تيار معين أو ارتباط معين . إنه يشجع كل شىء يميل نحو  
الغاية التى يرمى هو إليها .

وكتب هذه السطور يميل إلى فكرة أنه قد ينتشر فى جميع أرجاء  
المجتمعات الناطقة بالإنجليزية إدراك ثقافى عام ، ولا يمكن أن يكون ثم  
ضرر من محاولة إعطاء هذا الاتجاه صورة ملموسة . وأعتقد أن حل  
الأمبراطورية البريطانية يمكن أن يكون فاتحة لتكوين هذا المركب  
العظيم . وهناك فى نفس الوقت عوامل تساعد على توثيق الرابطة بين  
الولايات المتحدة الأمريكية وبين ما يسمى بالدول الشمالية . وليس هناك  
ما يدعو إلى تعارض هذين الاتجاهين . فبعض الأقطار مثل كندا يتمتع  
فعلاً بضمان مزدوج ، فليهما ضمانة مبدأ منرو وليهما حماية الأسطول  
البريطانى .



وقد تصل ألمانيا التي يبلغ سكانها ثمانين مليوناً ، والتي وصلت فعلاً إلى  
 جماعية عالمية ، قد تصل إذا أقرت إعلان حقوق الإنسان إلى نظام اشتراكي  
 حركامل ، أسرع مما تصل بريطانيا العظمى أو فرنسا إلى هذا النظام . وإذا  
 ساهمت في اتحاد لترقية ما يسمى بأقطار العالم المتأخرة سياسياً ، فقد لا تميل  
 بعدُ إلى مغامرات عسكرية جديدة ، وإلى ضائقة جديدة وبؤس جديد .  
 وقد تدخل في طور سريع من الانتعاش الاجتماعي والاقتصادي ، فتنبه  
 سائر بلدان العالم وتؤثر فيها . وليس للدول الأخرى أن تملي عليها سياستها  
 الداخلية ، فإذا شاء الشعب الألماني أن يظل شعباً واحداً متماسكاً ، في دول  
 الاتحادية أو دولة واحدة مركزية ، فليس من العدل ولا من الحكمة أن  
 يمنع من ذلك .

إن الألمان — مثلهم في ذلك مثل سائر العالم — عليهم أن يتدرجوا  
 نحو الجماعية ، وعليهم أن ينتجوا نموذجهم الخاص ، وهم لا يستطيعون أن  
 يكسروا أنفسهم لهذا العمل إذا قُسِّموا وشتتوا تشتيتاً صناعياً بوحى خطة  
 عتيقة كخطة كي دورساي — إنهم يجب أن يعملوا الشيء الصحيح  
 بطريقتهم الخاصة .

ومن الأخطار التي يجب أن تواجهها الدول الأطلنطية أن التقاليد  
 الحربية قد تستمر في ألمانيا جيلاً أو نحو ذلك . ومن حق العالم أن يصر  
 على اعتراف الشعب الألماني عامة — لا حكومة ألمانيا ما — إعترافاً صريحاً  
 متكرراً بحقوق الإنسان المقررة في الإعلان . ومن سداد الرأي أن نصر



أيضاً على بقاء ألمانيا منزوعة السلاح ، وعلى أن كل مصنع حربي أو طائرة حربية أو سفينة حربية أو بندقية أو دار صناعة تكتشف في هذه البلاد يجب أن تدمر في الحال تدميراً تاماً قاسياً . ولكن هذا شيء لا ينبغي أن يكون مقصوراً على ألمانيا . ينبغي ألا تُفرد ألمانيا بذلك . ينبغي أن يكون السلاح عملاً غير قانوني في كل مكان ، وينبغي أن تشرف قوة دولية من نوع ما ، على أمن عالم ربطت المعاهدات بين أجزائه . إن السلاح الجزئي هو سخافة من تلك السخافات الحبيبة إلى المعتدلين « المعقولين » . إن السلاح نفسه حرب . فصناعة بندقية وتصويب بندقية وإطلاقها ، كل تلك أعمال من نوع واحد . ينبغي أن يمنع القانون صناعة أي جهاز — في أي جزء من أجزاء الأرض — يقصد منه قتل البشر . إذ من المعقول أن تسأل إذا رأيت بندقية . لقتل من أعدت هذه البندقية ؟

ولقد لقيت ألمانيا تساهلاً كبيراً عندما أعادت تسليحها بعد سنة ١٩١٨ ، وذلك لأنها لعبت من ناحية بخوف بريطانيا من روسيا ، ومن ناحية أخرى بخوف روسيا من الهجوم « الرأسمالي » ولكن هذه العلة لا يمكن أن تصلح بعد أداة في أيدي أية جماعة من مرتزقة الحرب الخادعين من أبناء ألمانيا ، بعد أن عقدت اتفاقها مع موسكو .

إذا أعفيت ألمانيا من الأعباء والقيود الاقتصادية التي عرقلت انتعاشها بعد سنة ١٩١٨ ، فقد تجد مخرجاً كافياً مرضياً لنشاط شبابها في مجامعها المنظمة ، فيرتفع مستوى حياتها العامة رفعاً وثيداً مستمراً ، وتسبق روسيا



من حيث كفاءة النظام ، وتضطر « سياسة » العالم الأطلنطي المثرثة وغفلته المشتتة إلى التركيز على حقائق الحياة . إن فكرة تمزيق ألمانيا مرة أخرى إلى نشائر غير منسجمة بغية تأجيل انتعاشها النهائى تأجيلاً غير محدود ، لهى حلم بليد ليس من الديموقراطية فى شىء . إنه يفاقض إعادة إنشاء العالم مناقضة تامة فنحن محتاجون إلى فضائل الشعب الألمانى التى ينفرد بها عن غيره من الشعوب ، وبقدر ما يكون انتعاش ألمانيا سريعاً يكون ذلك خيراً للعالم كله . إنه لمن غير المعقول أن تكبل خطى ألمانيا لاشىء إلا لىكى يتمتع النظام القديم بسنوات قليلة أخرى من العريضة فى إنجلترا وفرنسا وأمريكا .

ولعل بقية خوف من الاعتداء العسكرى الألمانى ألا تكون سيئة الأثر على الدول الصغرى فى جنوب شرق أوروبا وفى آسيا الصغرى ، فتفل من وطنيتها المسرفة ، وتضطرها إلى العمل بعضها مع بعض . وينبغى أن تكون سياسة الرجل العاقل الترحيب بكل تجربة ممكنة فى التعاون الدولى ، وإذا تصاعفت هذه الاتفاقات وتداخلت حدودها فذلك أفضل . وعليه أن يراقب نشاط وزارة الخارجية فى بلاده بغيرة لا تهين ، متنبها لبوادر ذلك الروح المكياثلى الذى يبذر بذور الانقسام بين الحكومات والشعوب الأجنبية ، والذى يدبر الخطط دائماً لكبح الحركة التقدمية فى الشؤون الإنسانية ، بتحويلها إلى « توازن دولى » متأرجح غير حاسم .

إن هذا الكتاب يبحث فى المبادئ الرئيسة لافى مشاكل التكيف



الخاصة التي لا تنتهى ، والتي ستظهر فى الطريق إلى تحقيق عالمى للوحدة الجماعية . ولهذا أكتفى بالإشارة إلى فسكرة نابليون الثالث القديمة ، فكرة الإتحاد اللاتينى ، وإلى إمكان الوصول إلى موقف فى أمريكا الجنوبية الأسبانية البرتغالية يشبه ذلك التداخل بين مبدأ منرو وبين الأوطان الأوربية وهو الموقف القائم فعلاً وعملاً فى كندا . كذلك لن أطيل القول فى الإمكانيات العديدة التى تنشأ من تطبيق إعلان حقوق الإنسان تطبيقاً صادقاً على الهند وأفريقيا — وبخاصة على تلك الأجزاء من العالم التى أخذت فيها الشعوب السوداء أو شبه السوداء تتيقظ لحقائق التمييز الجنسى والقهر الجنسى .

ولأحذر تحذيراً عابراً من كل معالجة مكيفالية لمشكلة آسيا الشمالية الشرقية وهى معالجة قد ينجح إليها البريطانيون بدافع خوفهم من روسيا . فالجماعية السوفيتية ، وبخاصة إذا تحررت تحرراً سريعاً وزادت كفاءتها بتخلصها من شعب ستالين الذى يسيطر عليها فى الوقت الحاضر ، قد تنتشر انتشاراً فعالاً عبر آسيا الوسطى والصين . فأما من تغذى بلبان أفكار المنافسة التى لا تنتهى بين القوى ، من أجل السيطرة الدائمة ، فسيبدو له أن المحالفة مع اليابان — تلك الدولة العسكرية المتبربرة — هو الرد الطبيعى الذى لا يماثل له رد . وأما من عرف حقيقة الموقف الحاضر للإنسانية ، والحاجة العاجلة إلى جماعية عالمية ، فسيرى أن هذا التوحيد الواسع النطاق أمر جدير بالترحاب والنقد والتعظيم .



وقد يساعد الرعب القديم من « أطماع روسيا في الهند » على تسوية الموقف الآسيوى فى أنظار كثير من الناس . على أن مائة عام من الإهمال والاستغلال ، والاندفاعات الوقتية نحو المعونة الحقيقية : مائة عام من هذه الأشياء الثلاثة مجتمعة كفيلة بأن تعلم البريطانيين أن المصير الأخير لمئات الملايين من الجنود لا يرتكن الآن على حاكم فاتح أيا كان ذلك الحاكم ، بل يرتكن ارتكاناً تاماً على مقدرة الشعوب الهندية على أن تعاون وتشارك فى جماعية عالمية . وقد يتعلم الهنود كثيراً بالاكتساب والقدوة من روسيا أو من عالم الناطقين بالإنجليزية ، ولكن أيام العصيان المجرد أو الاسترواح لتبديل السادة قد انقضت . إن الهند يجب أن تجد لنفسها ، وبعقولها الممتازة الكثيرة ، مخرجاً من الفوضى ، وطريقاً خاصاً بها للمشاركة فى صراع من أجل نظام عالمى ، متخذة الراجا البريطانى نقطة للبدء . ولا تستطيع قوة خارجية أن تحقق ذلك للشعوب الهندية ، ولا أن تجبرها على عمله إن كانت راغبة عنه .

ولكنى لن أُلِمَّ بعد بهذه المشكلات والإمكانات الدائمة التغيير ، فهى احتمالات وفرص « على جانب الطريق » إن صح هذا التعبير . ومهما كان بعضها عظيماً فهو ثانوى برغم ذلك . يجب الآن أن يعاد تخطيط القنوات السياسية المتغيرة مرة كل عام أو نحو ذلك . ويكون نشاط الرجل العاقل واستجاباته فى أى قطر من الأقطار وفى أى عصر من العصور محكومة بتلك الفكرة المهيمنة : حركة الكون نحو نظام عالمى واحد .



يجب أن تكون هذه الفكرة هي الهدف الدائم الذى تتجه اليه حياته السياسية كلها .

على أن هناك وجهاً آخر من التكتل العالمى يجب أن نشير إليه قبل أن نختم هذا الفصل ، وهو ما يمكن أن نسميه النظم الدولية « الخاصة » . وقد جلى ليونارد ولف . لفكرة الجهورية فى ذلك العمل الدولى الجانبى فى كتابه « الحكومة الدولية » ، وهو كتاب مأثور نشر فى سنة ١٩١٦ وما يزال مفيداً لمن يقرؤه .

والمثال النموذجى للمنظمات « الخاصة » هو اتحاد البريد ، الذى كان دافيد لو بين ، ذلك المفكر المنسى ، يريد أن يوسع حدوده حتى يشرف على الملاحة ويسوى الحمولات فى جميع أنحاء العالم . وقد بنى لو بين آراءه على خبرته العملية بأعمال البريد ، وهى التى جنى منها ثروته الطائلة . وانتقل من مشكلة تنظيم الحمولات إلى فكرة الاشراف على الانتاج العالمى أسبوعاً أسبوعاً وشهراً شهراً . حتى إذا حدث نقص هنا أو فائض هناك أمكن السبق إلى معرفته وعلاجه فى وقته . وقد حقق هذه الفكرة فى المؤسسة الدولية للزراعة بروما ، التى كانت فى أوج مجدها تعقد المعاهدات كأنها دولة مستقلة ، بشأن ما تستبدله من كل حكومة من حكومات الأرض . وقد أوقف نشوب الحرب فى سنة ١٩١٤ وموت لو بين فى سنة ١٩١٩ تطور هذه التجربة الرائعة للمهمة فى الدولية « الخاصة » . إن تاريخ هذه المنظمة ينبغى أن يعد جزءاً من الدراسة الاجبارية على كل رجل من



رجال الدولة وعلى كل عالم بالقانون الدولى . على أنى لم ألق فى حياتى قط سياسياً محترفاً يعلم عنه شيئاً ما أو يريد أن يعلم عنه شيئاً ما . إنه لا يكسبه أصواتاً ، ويبدو من الصعب أن تفرض عليه ضريبة ، فما فائدته ؟

ومن المنظمات الخاصة الأخرى والتي يمكن توسيع وظائفها توسيعاً عظيماً جماعة المجلس البحرى<sup>(١)</sup>، التى تشرف على المنائر وتخطيط البحار فى طول العالم وعرضه . ولكننا محتاجون إلى مراجعة طويلة وتوسيع عظيم لسكتاب المستر ولف ، حتى نتبع قصة الشبكات الدولية « الخاصة » التى تختلف من المنظمات العالمية والفنية ، ومقاومة تجارة الرقيق الأبيض ، والتعاون البوليسى الدولى ، إلى الجمعيات الصحية والإرساليات الدينية . وليس هنا مجال تتبع هذه الأشياء كلها ، وإن كانت ضرورات الحرب قد أخرت تطورها أو عكست هذا التطور فى بعض الأحيان . وكما أشرت إلى أن الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى قد تصبحان عن غير وعى منهما دولتين اشتراكيتين ، فكذلك ليس حلاً مستحيلاً على الإطلاق أن يجد العالم نفسه فجأة وقد أحت فيه الفروق بين الأجناس فعلاً ، باتساع هذه المنظمات التعاونية « الخاصة » وتشابكها . وعلى أية حال فهذا التطور الجانبى يسائر لدينا الخطط السياسية التى سبق أن ناقشناها ، وهى خطط أكثر تحديداً .

(١) The Elder Brethren of Trinity House



إن المرء إذ يعرض إمكانيات هذه المحاولات المختلفة لإيقام العقبات التي تقوم بيننا وبين نظام عالمي جديد أبعث على الأمل ، ليتبين دواعي الأمل في تلك الإمكانيات العظيمة ليمتدح سخافة عدم الإسراف في الثقة . إننا جميعاً أشبه بجنود في ساحة قتال فسيحة ، قد يستخفنا الفرح بينما تكاد تنزل بنا النازلة ، وقد نكون على شفا اليأس ونحن لا نعلم أن خصومنا يهنون . أما استجاباتي أنا فتتراوح بين إيمان كإيمان المتصوفة في انتصار العقل والخير الانسانيين آخر الأمر ، وبين أحوال من التصميم الروائي على الصدق والصبر حتى النهاية ، تجاه شيء يبدو كأنه كارثة محتمة . إن هناك عوامل كمية ليست لدينا إحصاءات تساعد على تقريرها . وهناك عوامل من الزمن والفرص لا يمكن حسابها . وكل ناحية من نواحي النشاط التي سبق لنا رسمها تساعد على تأخير الانزلاق نحو الدمار ، وتمنح نقطة ارتكاز للقيام لهجوم مضاد على العدو .

وقد حاولت في الكتاب السابق لهذا « مصير الانسان » أن أقرر أن النوع الإنساني لا يحق له الاعتقاد بأن في استطاعته الإفلات من الهزيمة والفناء ، أكثر من أي كائن آخر يلعب دوراً على مسرح الحياة ، أو لعب هذا الدور . وحاولت أن أبين ما في موقفنا الحاضر من خطورة بالغة ، وما ينبغي لنا أن نبذله من جهد شديد عاجل لإصلاح أمورنا الآن . وكانت هذه الدعوة تبدو — إلى عهد قريب — دعاء لعالم أصم أعمى ، لا يترشح عن طريقه المألوفة حتى ولو وضح أنها تؤدي إلى الدمار .



فساءات نفسى هل يدل هذا الميل إلى التشاؤم على حالة أوطور من أطوارى  
 واتهمت نفسى ؛ ولكننى - بينى وبين نفسى - لم أجد سبباً قوياً  
 يدفعنى إلى الاعتقاد بأن سنبذل يوماً ما ذلك الجهد العقبى اللازم لكى  
 ينجو الإنسان من القضاء الذى يوشك أن يحل به .

وإذا بالمرء يلاقى الآن فى كل مكان عقولا فزعة منفتحة متسائلة .  
 ولقد كانت التغيرات التى طرأت فى الحرب الحاضرة نافعة حتى الآن فى  
 تشتيت أوهام الأمن التى كانت تبدو منذ عام واحد أوهاماً لا تغلب .  
 ما توقعت قط أن أعيش حتى أرى العالم مفتوح العينين كما هو الآن . لم  
 يكن العالم قط متيقظاً كما هو الآن . وقد يكون ذلك ضئيل الأثر ، وقد  
 يكون عظيم الأثر . نحن لا ندرى . وليست الحياة بشىء لو كنا ندرى .



## نظام العالم في سبيل التكوين

لن يكون هناك إذن يوم مذكور يظهر فيه نظام العالم الجديد إلى الوجود . بل سوف يتم ذلك خطوة خطوة هنا وهناك ، حتى عند ما يظهر ذلك النظام الجديد في الوجود سوف يأخذ في اتجاهات جديدة متطورة ، ويستكشف مشاكل غير متوقعة ، ويمضى إلى مغامرات جديدة . ولن يفرد رجل أو جماعة من الناس بالذكر على أنه أبو ذلك النظام أو مؤسسه فلن يكون صانعة هو هذا الرجل أو ذاك الرجل أو أى رجل سوى « الانسان » ، ذلك الكائن الذى ينطوى كل واحد منا على نصيب منه . سوف يكون نظام العالم مثل العلم أو مثل أكثر الاختراعات نتاجا اجتماعياً ، وسوف يتحقق بجهود أفراد لا يحصى عددهم ، أشخاص سموا في حياتهم ووضعوا خيراً ما لديهم في ذلك العمل الجماعى .

ونستطيع أن نجد في تاريخ الطيران نموذجاً . صغراً للتطور المنتظر في النظام العالمى الجديد . فنذ أقل من ثلث قرن كان تسعة وتسعون فى المائة من الناس يخبرونك أن الطيران مستحيل . هم يستطيعون أن يتصوروا طائرات الورق والمناطيد بل المنطاد الشراعى أيضاً ، فقد عرفوا أشياء كهذه منذ مائة عام . أما جهاز أثقل من الهواء ، يطير برغم الريح والجاذبية .



أما هذا فكانوا « يعلمون » أنه هراء . كان الراغب في دراسة الطيران المخترع هو نموذج الهزأة ، فكل أحق يستطيع أن يسخر منه . والآن أنظر كيف تم غزو الهواء .

ومن فعل ذلك ؟ لا أحد وكل أحد . عشرون ألف عقل أو ما يقرب من ذلك ، كل منها يزيد فكرة أو ابتكاراً أو يكمل ناقصاً ، يحمس بعضها بعضاً ويقتبس بعضها من بعض . كانوا أشبه بخلايا عصبية في منح ضخم ، ترسل ردودها هنا وهناك . كانوا أناساً مختلفين كل الاختلاف في الجنس واللون وإنك لتستطيع أن تكتب أسماء مائة من الناس ممن برزوا في عالم الجو ، فإذا بحثت عن الدور الذي لعبوه وجدت أكثرهم ذوى شهرة طنانة من طراز لندبرج ، وضعوا أنفسهم بتواضع ولكن بثبات في مجال الشهرة المشرق ، دون أن يستطيعوا ادعاء شيء من المشاركة المنتجة أياً كان . وسوف تجد كثيراً من الجدل في الأرقام القياسية وفي السبق إلى هذه الخطوة أو تلك ، أما سبل الاقتراح والتفكير ، أما نمو الفكرة وتحسينها ، فقد كان سلسلة لا يمكن تتبعها على الإطلاق . وقد ظلت هذه السلسلة تتتابع حلقاتها أمام أعيننا مدة لا تزيد عن ثلث قرن ، ولكن لا أحد يستطيع أن يقول كيف تم الأمر . قال واحد : لم لا يكون هذا ؟ وحاوله ، فقال آخر : ولم لا يكون ذاك ؟ كانت هناك فكرة واحدة مشتركة بين صنوف شتى من الناس . فكرة سحيفة القدم عن عهد ديدالوس ، فكرة أن « الإنسان يستطيع الطيران » . وإذ بالفكرة « تهبط إلى الواقع



مسرعة» — هذه هي العبارة الوحيدة المستطاعة — وإذا بالطيران ممكن .  
 ووجه الإنسان — الانسان ككائن اجتماعي — فكره إلى هذه الغاية ،  
 وجد في السعي ، وطار .

وكذلك سوف يكون الشأن — على اليقين — في النظام العالمي  
 الجديد ، إن تحقق ذلك النظام يوماً . فالفكرة « تهبط إلى الواقع » ،  
 وصنوف شتى من الناس تقول إن « السلم العالمي ممكن » . سلم عالمي  
 يكون الناس فيه متحدين أحراراً مبدعين . ولا عبرة بأن أكثر الرجال  
 الذين بلغوا الخمسين أو أربوا عليها يتقبلون الفكرة ببسمة إشفاق . إن أهم  
 الأخطار التي تقف في سبيل هذه الفكرة هي الدجاطيقية و « الزعيم  
 المنتظر » الذي سيمحاول أن يكبح كل اتجاه في العمل مواز لاتجاهه وإن لم  
 يكن خاضعاً لسيطرته . يجب أن تكون هذه الحركة متعددة الرؤوس ،  
 ويجب أن تظل كذلك . ولنفرض أن العالم قرر من قبل أن سانتوس  
 ريمونت أو هيرام مكسيم هو سيد الجو الذي بعثته العناية الإلهية ، ثم منحه  
 الحق في اختيار خليفة له ، واخضع كل التجارب لإشرافه الملمهم . لو فعل  
 العالم ذلك لكان من المحتمل أن ترى الآن سيد الجو ومن خلفه حاشيته  
 من الإمعات ، يتبعون ببصرهم — ونفوسهم مفعمة بفخار ورضى — جهازاً  
 غير متقن ولا نافع بل شديد الخطورة ، يعبر الريف طالعاً .  
 غير أني لا أعدو الدقة حين أقول إن هذه هي الطريقة التي نعالج بها  
 مشكلاتنا السياسية والاجتماعية .



وإذا راعينا هذه الحقيقة الجوهرية وهي أن السلام الإنسانى لا يمكن أن يتحقق — إن تحقق على الإطلاق — إلا بتقدم على جهة طويلة متشعبة ، بسرعة متفاوتة ، وبأهبة غير متعادلة ، لا يحدد اتجاهنا فيه إلا إيمان عام بالحاجة المثلثة إلى الجماعة والقانون والبحث ... إذا راعينا هذه الحقيقة أدركنا استحالة رسم أية صورة للنظام الجديد كما لو كان نظاماً مقررأً ثابتاً ، مثلاً كان النظام القديم يظن نفسه . سوف يكون النظام الجديد نظاماً متصلاً ، فلن تكف الأشياء عن الحدوث ، ومن ثم فالنظام الجديد يتحدى كل وصف مثالى . على اننا نستطيع مع ذلك أن نجمع طائفة من الإمكانيات التى سيصبح تحقيقها متيسراً ويزداد يسراً كلما انحسر موج التفكير وانكشف النظام الجديد .

فعلينا أولاً أن نتبين بعض الخصائص المعينة فى السلوك الإنسانى ، وهى خصائص مهمة كل الإهمال فى التفكير السياسى العام . وقد بحثنا الدور العظيم الأهمية الذى يمكن أن يلعبه فى مشاكلنا المعاصرة تقرير واضح لحقوق الإنسان ، ورسمنا خطة لمثل هذا التقرير ولا أظن أن فى هذا التقرير نقطة واحدة لا يعتبرها كل إنسان مطلباً عادلاً ، ما دامت تعنيه هو . فهو على أتم استعداد لأن يؤيدها بهذا الروح . ولكن حين تطلب منه أن يؤيده — لا كشيء يقره فى الوقت نفسه لكل شخص فى العالم فحسب ، بل كشيء يجب عليه أن يبذل له كل تضحية لازمة لتحقيقه العملى — إذا طلبت منه ذلك وجد من نفسه نفوراً عن « المضى إلى هذا الحد » .



ليجدن مقاومة خطيرة تنبع من شعوره الباطني ، وتحاول أن تبرر نفسها في أفساره .

سيقول لك أشياء مختلفة ، ولكن كلمة «غير ناضج» سوف تلعب دوراً كبيراً فيما يقول . سوف يظهر حنواً كبيراً ورعاية عظيمة لم تكن تتوقعهما منه قط — للخدم والعمال والأجانب ، وبخاصة أولئك الأجانب الذين يختلفون عنه في اللون . سوف يؤذون أنفسهم بهذه الحرية الخطرة . سيقول لك : «أهم صالحوں لكل هذه الحرية ؟ أخبرني صراحة : أهم صالحوں لها ؟» وسوف يتأذى منك قليلاً إذا قلت له : «صالحوں كصلاحيك لها» . وسيقول بنبرة فيها شيء من السرور : «ولكن كيف تستطيع أن تقول ذلك ؟» ثم ينفض يده من الحديث قائلاً : «أراك تنظر إلى البشرية نظرة مثالية .»

فإذا ألححت عليه وجدت هذا العطف يتبخر من مقاومة تبخر تماماً . فهو الآن معنى بجمال العالم ورقته عامة . فسيحتج بأن هذا الميثاق العظيم الجديد سيرد العالم كله «متشابهاً مستوياً جامداً» وستسأله لماذا يجب أن يكون عالم الرجال الأحرار عالماً متشابهاً مستوياً جامداً ، ولن يستطيع أن يجيبك جواباً معقولاً . إنها دعوى عظيمة الأهمية لديه ، فهو مضطر إلى أن يتعلق بها . فقد تعود أن يربط بين «حر» و«مساو» ولم يواته قط الذكاء السكافي لأن يفصل بين الكلمتين وينظر إلى كل منهما على حدة . وهو قمين عندئذ أن يلجأ إلى إنجيل النبيل العاجز ، كتاب الدوس



هكسلى « عالم جديد جرىء » ويتوسل إليك أن تقرأه . فمتنحى ذلك  
 الحلم الثقيل وتزيد عليه إلحاحاً . فيقول إنه الطبيعة لم تساو بين الناس ،  
 وتحييه أن هذا لا يدعونا إلى تجسيم هذه الحقيقة ، فعلى قدر تباين درجات  
 الناس واختلاف مواهبهم ، يلزم لهم ميثاق عظيم يحمى بعضهم من بعض  
 ثم يتحدث عن سلب الحياة جمالها ورومنيتها فتجد بعض الصعوبة في فهم  
 مدلول هاتين الكلمتين عنده . ويتضح بعد قليل أو كثير أنه يجد التفكير  
 في عالم « يستوى فيه الخادم وسيده » تفكيراً بغيضاً كل البغض .

فإذا سبرت غوره بالأسئلة والإشارات الموجهة ، بدأت تتبين عظم  
 الدور الذى تلعبه « الحاجة إلى السمو على الأقران » فى تكوينه ( ولا تنس  
 أنك ستلاحظ عرضاً سرورك الخفى بالفوز عليه فى المناقشة ) . فإذا قرنت  
 هذا المثال الذى ندرسه بسلوك الأطفال ، وبسلوكك وسلوك من حولك  
 من الناس ، وضح لك مبلغ حاجتهم الملحة إلى الشعور بالنصر ، إلى الشعور  
 بأنهم خير من أقرانهم وأحسن عملاً ، وبأن بعض الناس يشعرون بذلك  
 ويعترفون به . إنه دافع أعمق وأمضى من الشهوة الجنسية . إنه جوع .  
 إنه مفتاح لكثير مما يشوب الحياة الجنسية من انعدام الحب ، مفتاح  
 للدوافع الوحشية ، وللبخل ، والتخزين ، والغش الكثير الذى لا يدر نفعا ،  
 والخداع الذى يهب الناس شعوراً بأنهم غلبوا شخصاً من الأشخاص ،  
 وإن لم يتقدموا عليه .

وهذه هى العلة الأصلية لحاجتنا إلى القانون ، وأسعى الميثاق العظيم



وجميع الوثائق المشابهة له إلى قهر الطبيعة الإنسانية دفاعاً عن سعادة الجميع .  
 فالقانون في جوهره تكيف لهذه الرغبة الملحة في السمو فوق الكائنات  
 الحية الأخرى جميعاً — تكيف لهذه الرغبة وفق حاجات الحياة الاجتماعية ،  
 وهو في مجتمع جماعى ألزم منه فى أى مجتمع آخر . إنه صفقة . إنه عقد اجتماعى ،  
 مؤداه أن نعامل الناس بمثل ما نحب أن نعامل به ، وأن نكبح أنانيتنا  
 المسرفة ليفعل غيرنا مثل ذلك . وإذا واجهنا هذه الاعتبارات التى قدمناها  
 فيما سبق عن حقيقة الحيوان الذى نعامله ، وضح لنا أن سياسة الرجل  
 العاقل كما رتبناها يجب أن تنطوى على توقع معارضة جادة لهذه الأداة  
 الأولية الحيوية لتحقيق نظام العالم الجديد .

وقد أسلفت الإشارة إلى إمكان تحويل المناقشة الجارية الآن عن  
 « أغراض الحرب » تحويلاً منتجعاً إلى رعايته لهذا الإعلان الجديد لحقوق  
 الإنسان . ويجب أن تراقب معارضته هذا الاعلان ، والمحاولات التى  
 ستبذل لتأجيله وإضعافه وإخماده وتجنبه ، وأن يشهر بها وأن تحارب  
 حرباً متصلة فى العالم كله . ولست أدرى إلى أى حد يتقبل الكاثوليكي  
 الصادق هذا الإعلان الذى أسلف تخطيطه ، ولكن الفلسفة العصبية  
 الكاذبة تصر على التفرقة فى المعاملة بين « الآريين » و « غير الآريين »  
 وتعد ذلك عملاً مجيداً . أما موقف الشيوعيين من بنود هذا الإعلان  
 فيتوقف — على ما أظن — على الأوامر التى سوف يتلقونها من موسكو .  
 ولكن الديمقراطيات أو الدول المسماة بهذا الاسم تختلف فى ظاهر الأمر



عن أسلفنا ذكرهم . وقد يكون ممكناً الآن جعل ذلك الإعلان معياراً  
لأمانة الزعماء والحكام وشجاعتهم ، أولئك الزعماء والحكام الذين أولتهم  
هذه الديمقراطيات ثقتهما . فبهذا الإعلان يمكننا أن نختبر هؤلاء الحكام  
اختباراً فيه من الدقة ما لا يمكن الوصول إليه عن أى طريق آخر .

ولكن النماذج البشرية والشخصيات البارزة والهيئات ذوات النفوذ  
والموظفين والأفراد المختارين المعتمدين — كل أولئك الذين سيخذلون عن  
ذلك الإعلان ويجادلون فيه ويتحدونه ، لا يمثلون كل ما ستوجهه طبائعنا  
الخبثية من مقاومة لهذه الأداة التي ترمى إلى تدعيم أبسط مبادئ العدل  
في العالم . فسوف يوجد في ثفايا الديمقراطيات أناس أكثر من هؤلاء  
عدداً ، يؤمنون بالإعلان بأفواههم ثم يأخذون في البحث عن طريقة  
لخيانة ذلك القانون والعبث به عبثاً غير ظاهر ، تدفعهم إلى ذلك شهوتهم  
إلى الشعور بالسيطرة والامتياز ، تلك الشهوة التي تكاد تنزل من إرادتنا  
الفردية منزلة الباب . ولعلهم لا يسمحون لأنفسهم إلا « بقليل من العبث »  
بهذا الإعلان . وإني ليمال إلى الظن بأن هذا الخداع نقيصة عامة . فأنا  
أتوق حقاً إلى خدمة العالم ، ولكنني أميل ميلاً شديداً إلى أن أنال على  
خدمتي فوق ما أستحقه من مكافأة أو احترام أو ما إليهما . أنا لا آمن  
نفسى . أنا أريد أن تسودنى قوانين عادلة . إنا نريد القانون لأننا جميعاً  
ميالون بطبعنا إلى الاعتداء على القانون .

هذا استطراد طويل في علم النفس . ولن أزيد على نظرة عابرة إلى



عظم الدور الذى تلعبه شهوة العلو والسيادة هذه فى التجارب الجنسية للإنسان . وفى هذه التجارب نجد الوسيلة ميسرة للتنفيس المطلق عن هذا التوتر المنبعث عن حب النفس ، بالتزويد والتفاخر . ولكن الذى دفعنى إلى هذا الاستطراد هنا هو هذه الحقيقة : أعنى أن تعميم « أغراض الحرب » التى نتحدث عنها حتى تصير إعلاناً للحقوق ، هذا التعميم لن ينفى المعارضة الصريحة أو الباطنة ، ولا إمكانيات الغدر والخيانة التى لا نهاية لها ، وإن بسط نتيجة الحرب تبسيطاً عظيماً .

كذلك لا ينفى هذا التعميم أنه قد يقع كثير من التأجيل والفشل قبل أن نصل إلى ديموقراطية اشتراكية عالمية منتجة نافعة ، مع أن اتجاه الصراع يبدو وكأنه ينحرف انحرافاً يبيناً نحو هذا النظام . فأناس لا يحصى عددهم ، من المهرجات إلى أصحاب الملايين ، ومن السادة المستعمرين إلى السيدات الحسان ، سيبلغون النظام العالمى الجديد ، وسيبتأسون لكبح شهواتهم وأطماعهم بظهوره ، وسيموتون وهم يحتجون عليه . فعند ما نحاول أن نقدر ما سيجلبه لنا هذا الإعلان يجب ألا ننسى ضجر جيل أو نحوه من المتذمرين ، وكثير منهم ذرو شهامة حقبة وظاهر جميل .

وليس يسيراً أن نهون من شأن الكفاءة التى ستفقد إن تحويل العمل الإدارى بروحه وكبريائه ، من رجل مستثمر ذى راتب ضخم ، متباه بكثرة الإنفاق ، وله زوجة طموح إلى مكانة اجتماعية ممتازة ، إلى رجل أقل راتباً ، وأكثر نقداً لنفسه ، يعلم أنه يكتسب احترام الناس بما يهبه



لعمله ، أكثر مما يكسب احترامهم بما يفاله منه . سيحدث إبان عصر الانتقال تضيق كبير للقوى الاجتماعية ، وأمور كثيرة تضحك وتبكي ، وفقدان كثير للكفاءة . ويجب أن نكون على استعداد لذلك .

ولكننا بعد أن نسلم بحدوث هذه الأزمات العارضة ، نستطيع أن نتطلع بشيء من الثقة إلى أطوار معينة في مستقبل النظام العالمى . ستكون الحرب أو مخافة الحرب قد أدت في كل مكان إلى تركيز أعداد ضخمة من العمال في صناعة الذخيرة وإقامة المنشآت الهجومية والدفاعية من كل نوع ، في بناء السفن ، ومد خطوط المواصلات الداخلية ، وإنتاج الأعواض الصناعية ، وبناء الاستحكامات . ستكون هناك زيادة عظيمة وسيطرة عظيمة على المادة وعلى الصناعة الآلية المنشئة ، كما ستكون هناك زيادة عظيمة في القدرة على استخدام المادة أو إدارة الآلة . وعندما يتقارب احتمال الوصول إلى نصر نهائى ، وتمر هذه الحرب المهوّشة من طورها العسكرى البين إلى طور الثورة ، وعندما يجتمع مؤتمر للصلح ، عند ذلك سيكون من الأمور اللازمة — لا المرغوب فيها وحسب — أن توجه الحكومات هذه الموارد وهذه الأعمال نحو التشييد الاجتماعى . وسيكون من الأمور الظاهرة الخطورة والتبذير أن تبطل الحكومات استعمال هذه الآلات وهؤلاء الأشخاص . فقد تعلمت الآن بلا ريب معنى البطالة في مصطلح الانحلال الاجتماعى . سيكون على الحكومات أن تنظم العالم ، وأن تعد خطة للسلم وتمهد سبيله ، سواء أشاءت هى ذلك أم لم تشأ .



ولكن سيسأل سائل : « وأنى لك المال اللازم لذلك ؟ » ولكي نجيب على هذا السؤال يجب أن نردد هذه الحقيقة : أن النقود وسيلة لا غاية . سيكون العالم مالكا للمادة والأيدى اللازمة لتجديد ظروف حياته في كل مكان . إن هذه المادة وهذه الأيدى تحيط بك في كل مكان ، وإنها تصرخ الآن طالبة أن تستعمل . إن وظيفة نظام الاعتمادات النقدية الحالى هى أن يجمع بين العامل والمادة ، وأن يجعل اتحادهما منتجا ، أو هكذا كانت وظيفته على كل حال . وبهذه العلة برر ذلك النظام نشاطه دائماً ، وبها أثبت وجوده ، وإذا لم يوجد لذلك الغرض فلاى غرض يوجد إذن وأى حاجة بعد إليه ؟ إذا وقف الجهاز الاقتصادى اليوم وواجهنا بإعلان عجزه ، فمعنى ذلك أنه ينزل عن وظيفته .

وإذن فعليه أن ينأى عن سبيلنا . إنه سيعان أن « العالم » قد وقف ، إذا كانت الحقيقة أن « المدنية » هى التى وقفت . لم يفشل سوى مكتب الحسابات . وقد أخذ عدد متعاضد من الناس يسألون منذ زمن طويل عن مكتب حسابات العالم ، متغلغين فى نهاية الأمر إلى أسئلة أساسية مثل : ما النقود ؟ ولم وجدت المصارف ؟ ومن الأمور المزعجة ، والباعثة على التفكير أيضاً ، أن هذه الأسئلة لم تصادف جواباً واحداً جلياً . وقد يظن المرء أنه كان من المنتظر قبل أن يحدث هذا بزمن طويل ، أن يتقدم أحد كبار رجال المصارف الكثيرين بتبرير واضح بسيط للأعمال النقدية اليوم . كان من المنتظر أن يرينا أن نظام الاعتمادات النقدية هذا



نظام معقول جدير بالثقة . وكان من المنتظر أن يرينا ما به من اختلال مؤقت ، وكيف نصلحه مرة أخرى حتى يعود إلى العمل ، شأن الكهربائي حين تنطفئ الأنوار . وكان من المنتظر أن يخلصنا من مشاكلنا المقلقة المتزايدة بصدد نقودنا التي في المصرف ، ومدّخراتنا التي خزناها كدأب السنجاب الصغير ، وممتلكاتنا التي تشبه حزام النجاة الآخذ في الانكماش ، والتي كنا نتخذها وسيلة لضمان استقلالنا حتى النهاية . لكن لم يظهر اقتصادي كالذي وصفناه ، وليس ثمة من يمكن أن يسمى « متطرفاً » متأخراً . وإن كثيرين وكثيرين منا لمتفتحن عيونهم على تلك الحقيقة ، وهي أن ذلك النظام ليس نظاماً ولم يكن قط نظاماً ، وأنه مجموعة تقاليد وعادات وتطورات ثانوية ووسائل حلت محل أخرى مجموعة تفرقع الآن وتتداعى ، ثم تفرقع وتتداعى ، وتبدى كل علامة تنم عن انهيار اجتماعي تام مخيف .

وقد كان كثيرون منا يعتقدون حتى اللحظة الأخيرة أن هناك مكتب حسابات عالمياً موزعاً بين المصارف وإدارات المدن ، فيه دفاتر للحسابات ربما كانت كثيرة العدد شديدة التعقيد ، ولكنها في آخر الأمر حسابات مضبوطة . والآن — لا قبله — تتفتح عيون الناس الطيبين المستريحين على هذه الحقيقة : وهي أن مكتب الحسابات مضطرب أشنع الاضطراب ، فهناك مجلدات قد فقدت ، وإضافات قد زيدت ، وإضافات ضلت القائمة وسجلات كتبت بحبر طيار . . . . .



لقد ظهر منذ سنوات أدب عظيم تام موضوعه النقود . وهو أدب متنوع أشد التنوع ، ولكن فيه صفة عامة مميزة . فهناك أولاً عرض سريع للنظام القائم يرمى إلى إثبات خطأ هذا النظام ، ثم هناك شرح مطول لنظام جديد صحيح . فلنعمل هذا أولنعمل ذاك ، « فلتملك الأمة نقودها » كما يقول أحد أنبياء الإذاعة في جد وإلحاح وبساطة ، فتستقيم لنا كل الأمور . وهذه النحل المختلفة تصدر الدوريات ، وتنظم الحركات ( ذات الأقمصة الملونة ) ، وتجتمع ، وتظاهر ، ويتجاهل بعضها البعض تجاهلاً تاماً ، ويناقض كل منها الآخر مناقضة صريحة . وجميع هؤلاء المصلحين النقديين بغير استثناء تبدو عليهم علامات الإجهاد العقلي الشديد .

وسر الاضطراب في عقولهم هو أن « خطتهم » الصحيحة ، ذلك الدواء الذي يشفى من كل داء ، قد تفشل لسبب خفي دفن إذا هي وضعت موضع التجربة . وكفاحهم الباطني ضد هذا الشبح الذي لا يحتمل يظهر في سلوكهم الخارجي . فخطاباتهم وكتبهم — لا تكاد تستثنى منها شيئاً — تشترك مع الخطابات التي يكتبها المجانين في كثرة اعتمادها على الحروف الكبيرة والعبارات المفزعة . هم يصيحون لأقل إثارة أو لغير إثارة ، وليس صياحهم موجهاً إلى القارئ الحق الذي يظل عنيداً في حين يعرضون عليه الأمر بكل جلاء — بكل جلاء ، قدر ما هو موجه إلى الهمس المتلجلج في صدورهم .

لأنه لا يوجد نظام نقدي كامل في نفسه ولا يمكن أن يوجد مثل هذا



النظام . إنه حلم مثل إكسبير الحياة أو الحركة الدائمة ، وهو من طرازها في التفكير .

وقد سبقت الإشارة عند بحثنا لمقترحات المستر شتريث عن الاتحاد الآن إلى أن النقود تختلف في طبيعتها وعملها باختلاف نظرية الملكية والتوزيع التي يقوم عليها المجتمع ، وإلى أنها في الجماعة التامة مثلاً لا تعدو أن تكون صكاً يقدم إلى العامل ليقبض به أى شئ يريد من ثروة المجتمع وكل فصل للاحية من نواحي الإنتاج أو العمل عن الإشراف الجماعى ( القومى أو المدنى ) يزيد من الوظائف التي يمكن أن تستخدم فيها النقود ، ومن ثم يجعل من النقود شيئاً آخر غير الذى وصفناه . وعلى هذا يمكن أن توجد أنواع لانهاية لها من النقود ، طراز من النقود بعدد طراز النظام الاجتماعى وأشكاله . فالنقود فى روسيا السوفيتية أداة تختلف عن النقود فى ألمانيا النازية ، والنقود فى ألمانيا النازية تختلف أيضاً عن النقود الفرنسية أو الأمريكية . ويمكن أن يكون هذا الفرق شاسعاً كالفرق بين الرئتين والزعانف . وليس كما يظن كثير من الناس فرقاً كمياً وحسب بحيث يمكن لأمه بتغيير نسبة الاستبدال أو بشئ من هذا القبيل ، بل هو أعمق من ذلك ، فهو فرق فى الصفة والنوع . وإن مجرد التفكير فى ذلك ليبعث القلق والاضطراب والجزع فى نفوس رجال المال والأعمال عندنا فإذا هم يفتلون قضبانهم الذهبية من هذا القبول إلى ذاك ، آمالين وراء كل أمل ، ألا يعود أحد إلى الحديث عن ذلك الأمر . لقد كان من



المسلم به أن النقود متشابهة في العالم كله ، فكيف يعترفون بأن هذا  
الغرض لم يعد يصلح أساساً للعمل الآن ؟

وقد جنى بعض الأذكىاء فوائد معينة حين فهموا بشيء من التحديد —  
طبيعه النقود المتغيرة . ولكن بما أن المرء لا يمكنه أن يعذر متمولاً أو مدير  
أعمال إذا لم ينطو على الإيمان بحقه في الاستفادة من ذكائه الممتاز ، فإن  
هؤلاء الأذكىاء لم يجدوا ما يدعواهم إلى التحدث بما فهموه . لقد نالوا  
أرباحهم وعلى الدنيا السلام .

إذا فهمنا هذه الحقيقة — وليس فهمها بالشئ العسير — وهى أنه  
يمكن أن يوجد ، ويوجد فعلاً ، أنواع مختلفة من النقود ، تتبع الأساليب  
الاقتصادية المعمول بها ، أو النظام الاقتصادى المعمول به ، ولا يمكن في  
الحقيقة استبدالها — إذا فهمنا هذه الحقيقة وضح لنا أن نظاماً عالمياً  
جماعياً ، قانونه الأساسى هو إعلان للحقوق كالذى رسمناه ، مثل هذا  
النظام العالمى الجماعى يجب أن يزاوِل عملياته الرئيسية الأولية على الأقل  
بنقود عالمية جديدة ، نقود ابتكرت له خاصة ، مختلفة في طبيعتها عن أى  
نوع من النقود المألوفة المتعارفة ، التى قامت فيما سبق بحاجات الإنسان  
وستصدر هذه النقود الجديدة على إنتاج المجتمع القابل للشراء ، إزاء  
خدمات العمال للمجتمع . ولن يكون الداعى للذهاب إلى المدينة للاقتراض  
أعظم من الداعى للذهاب إلى عراف دلفى لاستشارته في هذا الشأن .  
وقد يبدأ ظهور مثل هذه النقود الجديدة بدءاً سريعاً في طور الأزمة



الاجتماعية والاشتراكية الاضطرارية ، وهو الطور الذى نمر به الآن على اليقين . فحين يستحيل على الحكومات أن تلجأ إلى وسائل مكتب الحسابات المالى المعقدة ، قد تلجأ إلى طريق مختصر لدرء العوز الذى أصابها ، فتمضع يدها على ما تستطيع الوصول إليه من الموارد القومية للثروة ، وتستخدم الأيدى المعطلة عندها بواسطة هذه الصكوك الجديدة .  
لعلها تأخذ فى تنظيم المقايضة الدولية على نطاق واسع . وسوف يتضح ارتباك مكتب الحسابات نتيجة تجاهله لطبيعة النقود المتغيرة ، بمقدار تناقص أهمية هذا المكتب .

وسوف تذوى البورصة والقروض المصرفية ، وسائر أنواع الإقراض والربا والمضاربة ، سوف تذوى هذه الاشياء جميعاً برسوخ النظام العالمى الجديد ، فإذا ما رسخ ، ومتى ما رسخ فسوف ينقضى طورها ، وتحل محلها أشياء أخرى أرقى منها ، كما انقضى طور البيضة والغشاء الجنينى . ولا يجوز أن نتهم من ابتكروا هذه الأساليب والنظم ونفذوها ، وزرميهم بالندالة والخبث ، فقد كانوا أمناء على قدر علمهم وقدرتهم ، وكانوا جزءاً ضرورياً فى عملية إخراج الإنسان من كهفه وإنزاله عن شجرته . وسوف يُطْلَق الذهب ، تلك المادة الثقيلة الحبيبية ، من أقبينته ومخابئه ، ليستخدمة الفنان والصائغ ، ولعله يطلق بسعر أقل كثيراً من سعره الحالى .

إذن فحاولتنا فى رسم نظام العالم المقبل هى محاولة لرسم صورة من النشاط الإنسانى عريضة دائمة الاتساع . ونستطيع أن نقدر تغيراً سريعاً



لوجه الأرض حسب إعادة توزيع سكانها مرة بعد مرة وفق الضرورات المتغيرة للانتاج الاقتصادى .

ولا يقتصر الأمر على وجود ما يسمى بنقص المساكن فى كل صقع من أصقاع الأرض ، بل إن كثيراً من المساكن القائمة لا تصلح - حسب المقاييس الحديثة - لسكنى الإنسان . ويندر أن توجد مدينة فى العالم القديم أو الحديث لا تحتاج إلى أن يهدم نصف مساكنها . وقد تشذ ستوكهولم عن هذه القاعدة إذا أعيد تنظيمها فى عهد اشتراكى . وكانت فينا تبشر بمستقبل طيب إلى أن حطم روحها دلفوس والرجعية الكاثوليكية . أما فيما عدا ذلك ف وراء بضع مئات من الطرق الكبرى والشوارع العظيمة . والكرانيش المشرفة على البحر أو على النهر ، والقباب والقلاع وما شابهها ، وراء ذلك أحياء قذرة وأعشاش وضيقة تشوه الطفولة وتهوى بالكبار وتستنزف حياتهم . إنك لا تستطيع القول إن الناس يولدون فى مثل هذه البيئة إنها نصف ولادة .

وسوف يكون من السهل أن نثير بمعاونة الصحافة والسينما اهتماماً شعبياً عالمياً وتمهيداً للنماذج الجديدة من المنازل والمعدات ، تلك النماذج التى أصبحت الآن ميسورة لكل إنسان . وهنا يمكن أن يوجد مجال للوطنية المدنية أو الإقليمية ، للعار الحلى أو للفخار الحلى أو للجهد الحلى . وهنا يمكن أن توجد مادة للمناقشة والجدل . فحيثما تيسر للناس الغنى والقوة والحرية ، اتجهت أفكارهم إلى العماره وغرس الحداثق . هنا يمكن أن يوجد



دافع جديد للأسفار ، هو رؤية ما تصنعه المدن الأخرى والأرياف الأخرى سوف يعمل الرجل العادي في عطلة ما كان يعملهُ اللورد الانجليزى في القرن السابع عشر . سوف يتم رحلته الكبرى ويعود من أسفاره ومعه رسوم وأفكار في العمارة يطبقها في وطنه . وسوف يكون هذا البناء المتجدد عملية مستمرة ، وشغلا مستمرا ، يسير من حسن الى أحسن كلما تغيرت مراكز القوى الاقتصادية وفق الاستكشافات الجديدة ، وكلما اتسعت أفكار الناس .

ومن المستبعد في عالم تتزايد فيه الضرورات وترتفع المستويات أن يرغب الناس العيش في منازل ظاهرة القدم ، أكثر من رغبتهم أن يعيشوا في ملابس بالية . وأظن أنه لن توجد مبان كثيرة تجب المحافظة عليها ، فيما عدا قليلا من الأماكن الريفية حيث ارتبطت الأبنية ارتباطا وثيقا بجمال الإقليم ، وأصبحت كأنها أشياء طبيعية ، أو حيث تجلت بعض المدن العظيمة على العالم بآية من آيات الفن . وقد تقدمت المنازل المتنقلة تقدما كبيرا في السنوات الأخيرة في البلاد الواسعة المكشوفة كالولايات المتحدة فالناس يجرون منزلا سياراً وراء عرباتهم ، ويصبحون بدواً رحلا ... على أنا لا نحتاج إلى مزيد من القول في باب لا تنتهى امكانياته . ولعل أولفا من أولئك الذين اشتركوا في أعمال إخلاء المدن وترحيل السكان — تلك الأعمال الهائلة غير المنظمة التي تجرى في هذه الأيام — لعل هؤلاء قد تنبهوا إلى امكان القيام بكل ذلك على وجه أفضل ، لو أنه أدى بروح



جديدة، وافترض غير الذى يؤدى له الآن . ولعل عدداً كبيراً من الشبان ومن فى حكمهم قد أصبحوا قابليين للعدوى بهذه الفكرة ، ففكرة تنظيف العالم وتنظيمه من جديد . وربما وجدنا أولئك الشبان الذين يكبون الآن على الخرائط ، ويخططون للملحقات والحدود الاستراتيجية ، وخطوط ماجينو الجديدة ، ربما وجدناهم بعد قليل يخططون توزيعاً سليماً طيباً للطرق وأحياء السكنى ، طبقاً لهذه البقعة الهامة التى تمد العالم بالنفط ، أو لتلك البقعة التى تمد بالقمح أو بالقوة المائية . إن هذين العاملين طراز واحد من التفكير ، ولكنه استخدم هنا على وجه أفضل .

مثل هذه الاعتبارات كفيلاً بأن تجعل لنظامنا العالمى المأمول أساساً طيبة من النشاط . ولكننا لسنا جميعاً مهندسين وبنائين ؛ فهناك نماذج كثيرة من العقول ، وكثير من أولئك الذين يدربون أو يتدربون على الأعمال الحربية التى تحتاج إلى مهارة خاصة ، أو على تنمية الروح الحربى ربما كان كثير من هؤلاء أميل إلى المضى فى عمل تعليمى خالص . وبهذه الطريقة يقيس لهم أن يشبعوا شوقهم إلى السلطان وإلى الخدمة النافعة . وسوف يواجهون علماً ذا حاجة ماسة إلى مزيد من المعلمين ، بل إلى مزيد من المعلمين النابهين الملهمين . ستكون ثم حاجة فى كل مستوى من التعليم من روضة الأطفال إلى المختبر ، وفى كل جزء من العالم من كاپريكورينا إلى أسكاد من الشاطئ الذهبى إلى اليابان ، ستكون ثم حاجة إلى المعلمين المجدين لتهيئة العقول للنظام الجديد ، ولحل مشاكل الارتباط الإنسانى



التي ستنشأ ، وهي مشاكل عديدة لا نهاية لها . وهنا طريق آخر للعمل يستطيع ملايين الشبان أن يجدوا فيه مخرجاً من الركود والكبت اللذين أرهقا أسلافهم عند ما كان النظام الجديد يشرف على نهايته .

وسيتحتاج العمل البوليسى فى العالم إلى طائفة من الشبان الأقوياء العزم القادرين على فرض إرادتهم . وسوف يكون هؤلاء أميل إلى السلطان وأرغب عن التعليم أو عن أعمال الخلق والابتكار من إخوانهم . وسيصدق المثل القديم على النظام الجديد كما صدق على ما قبله ، فيكون العالم محتاجاً إلى كل صنف من الناس . فليس لمثل هذه الحالة إلا أحد طريقين : إما أن تضطر هذا النموذج من الطبائع إلى الائتار بالنظام الجديد ومحاربتة ، أو تكبته إن استطعت ؛ وإما أن تستخدمه وتكسبه وتركن إليه ، وتجعل من ورائه قانوناً يحترمه ويفرض سلطانه . إنهم يحتاجون إلى نوع من الولاء وسيجد هذا الولاء خير إشباع له فى خدمة النظام العالمى . وقد لاحظت فى أثناء رحلاتى الجوية أن الطيارين من جميع الشعوب يشتركون فى صفات عامة متشابهة ، وأن الحمية الوطنية فى دهم تعادلها مهنية واسعة . أما الآن فالمستقبل الذى يداعب أنظار الطيار الشاب هو أن يفنى فى صراع مستمر شديد قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين . وإنى لأعجب كيف أن كثيراً منهم يطرب حقاً لهذه الفكرة .

ولسنا مسرفين إذا توقعنا أن يتبع إلغاء السلاح نحو بوليس عالمى ، تكون أعظم قوته فى الجو . ويدل على سهولة محو الفروق الوطنية بين رجال



البوليس الجوى ما يلاحظ فى الدوريات الجوية التى تطوف بمحدود الولايات المتحدة وكندا ، وقد نهى الرئيس روزفلت إلى هذه الدوريات فهذه الحدود يكثُر فيها التهريب ، والطائرات تقوم الآن بدور هام فى القضاء عليه . وكان لكل من الولايات المتحدة وكندا طائرتهما الخاصة فى أول الأمر ، ثم غلبت عليهما موجة من التعقل فأدبجت المصلحتان كل فى الأخرى وكل طائرة تحمل الآن ضابطاً من ضباط الضرائب من الولايات المتحدة ، وآخر من كندا . وعند ما تكشف بضاعة مهربة تهبط الطائرة ، ويتولى أحد الضابطين العمل ، حسب وجهة البضاعة المهربة . هنا نجد مثلاً للجهاد العالم فى سبيل الوحدة الجماعية ، سالكا سبيل التحالف أو الاتحاد . ولا شك أن بوليساً دولياً قوته الرئيسية فى الجو ، سيحتاج إلى التعاون الوثيق مع غيره من إدارات البوليس . يجب أن يكون البوليس قادراً على الطيران إلى أى مكان ، فى عالم يستطيع فيه المجرمون أن يطيروا إلى أى مكان . ولدينا الآن شبكة من الرجال الأكفاء ممتدة فى العالم كله ، تحارب تجارة الرقيق الأبيض وتجارة المخدرات وما إليهما . وإذن فالشئ الذى نتحدث عنه يبدأ الآن فعلاً .

وأنا أكتب كل هذا لكى أقدم مادة للتفكير إلى أولئك الذين لا يرون النظام المقبل سوى علامة استفهام مجردة . والناس يتكلمون بهراء كثير عن اختفاء البواعث فى ظل الاشتراكية . والعكس هو الصحيح . فتملك موارد الثروة الطبيعية تملكاً خاصاً هو الذى يسلب



الأغنياء القوة الدافعة والفقراء الأمل . وإعلاننا للحقوق الإنسانية يضمن للإنسان إشباع جميع حاجاته الأولية إشباعاً طيباً بالمادة اللازمة لذلك ، لا أكثر . فإذا كان يريد المزيد فعليه أن يعمل من أجله . وكلما كان صحيح الجسم حسن المأكل والملبس كان أكثر عزوفاً عن الكسل وأعظم رغبة في العمل . وإني أشير إلى ما يمكنه عمله إشارة مقتضبة ، وهذا هو غاية ما يستطيعه المرء الآن . فنحن نستطيع أن نتكلم عن المبادئ العامة التي ستعالج هذه الأمور على أساسها في اشتراكية عالمية آخذة في الثبات والاستقرار ، ولكننا لا نكاد نجرؤ على تقدير الأشكال التفصيلية ، والمظاهر الكثيرة المتنوعة ، فسوف يحدد هذه الأفكار الأولية عدد متعاضد من أذكى الناس .

لكن هناك إشارة واحدة بصدد البناء الاجتماعي ، قد يكون من الضروري إدماجها في صورتنا . وقد كان أول من لمسها - فيما أعلم - هو ذلك المفكر الشجاع الدقيق الأستاذ وليم جيمس في كتاب صغير عنوانه : معنى الحرب في الأخلاق . وقد أشار إلى أننا قد نكون في حاجة إلى شعور بالواجب ، يسير فكرة الحق ، حتى يكون في حياة كل مواطن سواء أكان رجلاً أم امرأة ، شيء يثير فيه إحساس الدين الشخصي للدولة العالمية والملاك الشخصي في الدولة العالمية . وربط بين الفكرة السابقة وبين هذه الحقيقة : وهي أنه سيظل في كل نظام اجتماعي يمكننا أن نتصوره ، كثير من الخدمات الضرورية لا يمكن بأية وسيلة أن نحجب



إلى النفوس فتختارها على أنها مهنة عادية دائمة مدى العمر . ولم يكن يفكر في مشاكل الجهد الآلى التى تتضاءل الآن بسرعة ، قدر ما كان يفكر في بعض الأعمال الثقيلة على النفس كعمل السجن والحارس فى مستشفى المجازيب ، وكعاية الشيوخ والعجزة والتمريض إطلاقاً ، وكالأعمال الصحية والطبية ، وكبقيّة من "الروتين" الكتابى ، وكالاستكشافات والتجارب الخطرة . ولا شك أن طبيعة الخير فى الإنسان كفيلة بأن تمدنا بالمتطوعين فى كثير من هذه النواحي ، ولكن هل للباقيين منا أن يستفيدوا من تقافى هؤلاء ؟ كان الحل الذى انتهى إليه وليم جيمس هو التجنيد الإجبارى فترة من الحياة بعد أن يبلغ الإنسان سن الرشد . سيكون على الشبان أن يؤدوا من الخدمات ويتجشموا من الأخطار ما تتطلبه مصلحة العالم . وسوف يستطيعون أن يؤدوا هذه الأعمال بمضاء من يعلم أن سيطلق سراحه بعد حين ، ومن يجد الفخار فى القيام بعمله على أكمل وجه . ولن يتعرضوا لذلك الإغراء المميت ، الذى يزين للناس الكسل والبلادة والخمود محافظةً على النفس ، والذى يصيب كل من دفعتهم الحاجة إلى هذه المهن بلا أمل فى الخلاص .

ومن الجائز جداً أن تشغف نسبة معينة من هؤلاء المحبذين بالعمل الذى تقوم به . فقد يختص حارس مستشفى المجازيب فى الطب النفسى . والممرض فى المستشفى قد يملكه ذلك التطوع الذى يمكن فى الفسيولوجى العظيم ، والعامل فى المحيط المتجمد قد يشغف حباً بصحرائه الجليدية . . .



وهناك احتمال رئيسي آخر للنظام العالمى الجماعى يجب الإشارة إليه هنا . وهو الزيادة الهائلة فى البحث والاستكشاف سرعة وكماً . وأنا أكتب « البحث » ولكنى أعنى به ذلك الهجوم المزدوج على الجهل ، الهجوم البيولوجى والفيزيقي الذى يسمى عادة « بالعلم » . لقد انحدرت إلينا كلمة « العلم » من تلك العصور الأكاديمية المظلمة ، حين اضطر الناس إلى أن يعزوا أنفسهم عن جهلهم بادعاء أن فى العالم قدراً محدوداً من المعرفة ، وحين اختال عليهم رجال ذوو قبعات ودثر ، ومنهم العالم الذى يعرف قدراً محدوداً ، والأستاذ الذى يعلم قدراً هائلاً ، والدكتور ذو الذئب البنى الذى يعلم كل ما يستطيع علمه . أما الآن فبلى أن لا أحد منا يعلم كثيراً ، وكلما أمعنا النظر فيما نظن أننا نعلمه ، وضحت لنا أشياء بمجهولة متوارية بين فروضنا .

ولقد كانت عملية البحث هذه التى نسميها « دنيا العلم » مقصورة حتى الآن على عدد قليل من العاملين ، وإنى لأزعم أن العقول القادرة على أن تضيف إلى الفكر العلمى والإنتاج العلمى آثاراً عظيمة رائعة — العقول التى تشبه اللورد رذرفورد أو داروين أو مندل أو ليوناردو أو جاليليو — لا يولد منها فى عالمنا هذا واحد من ألف بل واحد من عشرين ألفاً فى ظروف تساعد على تحقيق فرصة . والباقيون لا يتعلمون قط لغة متمدنة ، ولا يقتربون قط من مكتبة ، ولا يجدون قط فرصة — مهما كانت ضئيلة — لإدراك أنفسهم ، ولا يسمعون قط النداء . انهم لا يصيدون



ما يكفيهم من غذاء ، ويموتون شباناً ، ويُستخدمون فيما لا يصلح لهم .  
أما الملايين الذين يمكنهم أن يعاونوا معاونة طيبة نافعة دءوباً في البحث  
والكشف ، فلا يُنتفع منهم بواحد في المليون .

والآن أنظر كيف تكون الأمور لو أن لدينا تعليماً منشطاً للذهن محدداً  
لحياة العالم بأسره ، ولو أن لدينا بحثاً منظماً دائماً التحسن عن الكفاءة  
العقلية الممتازة ، وشبكة دائمة الامتداد من الغرض لتحقيق هذه الكفاءة .  
ولنفرض أن في الرأي العام قدراً كبيراً من الاحترام للآثار العقلية ونقداً  
شديداً للتزييف . لو كان الأمر كذلك لبدا لنا ما نسميه بالتقدم العلمى  
الحاضر تقدماً مسكيناً متردداً قلقاً ، إذا قورن بما يمكن أن يحدث في تلك  
الظروف السعيدة .

ولقد أنتج تقدم البحث والكشف نتائج بارعة رائعة في القرن ونصف  
القرن الماضيين ، حتى أن قليلاً منا يدركون صغر العدد الذى تولى ذلك  
من الرجال الممتازين ، ويعلمون من يتبع هؤلاء القادة من أشخاص  
ثانويين ، يصلون في النهاية إلى إخصائيين نفورين بؤساء لا يكادون  
يجرون على مواجهة موظف عام . هذا الجيش الصغير الذى هو دنيا العلم  
في هذه الأيام ، والذى لا أظنه يعدو من رأسه إلى ذنبه ، أى إلى آخر  
غاسل قنينته ، مائى ألف رجل -- هذا الجيش سوف تمثله بلا ريب في  
نظام العالم الجديد قوة من ملايين ، أحسن عدة ، وأوفر نظاماً ؛ لهم أن  
يسألوا ، ولهم أن يطلبوا إتاحة الفرصة لهم . ولن يكون جهدهم خيراً من



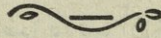
جهدنا — الذى لا يسمو عليه جهد — ولكنهم سوف يكونون أكثر عدداً ، وسوف يكون ذلك الجيش من المستكشفين والمعدنين والحجر بين والقاموسيين ، ما بين مقسمين ومنظمين ومفسرين ، على قوة وكبرياء وثقة تجعل معامل اليوم أشبه بمغارة الكيمياءى .

هل يستطيع أحد أن يشك فى أن « دنيا العلم » سوف تفتتح على هذا النمو عند ما تتحقق الثورة ، وأن سيطرة الإنسان على الطبيعة ، وعلى طبيعته هو ، وعلى هذا الكوكب الذى ما زال مجهولاً ، سوف تشتد سرعتها بمضى السنين ؟ لا أحد يستطيع أن يتنبأ أى الأبواب ستفتتح عندئذ ولا أى العجائب ستطل على هذه الأبواب .

هذه شذرات مختصرة عن تلك الحياة الواسعة التى يستطيع النظام العالمى الجديد أن يفتحها للبشر . ولن أطيل التفكير فيها حتى لا يقال عن هذا الكتاب إنه مثالى أو خيالى أو ما إلى ذلك . إنى لم أضع فيه شيئاً بجانب العقل أو يتعذر عند التطبيق . إنه أسلم الكتب منطقاً وأقلها ابتكاراً وأظن أنى قد كتبت ما يكفى لى أدل على استحالة أن تبقى شئون العالم فى مستواها الحاضر . فإما أن تنهار البشرية وإما أن يجاهد نوعنا صعداً فى تلك السبل الشاقة التى جمعتها فى هذا الكتاب ، والتى يمكن أن تعد رغم تشتها سبلاً واضحة ، حتى يصل إلى مستوى جديد من التنظيم الاجتماعى . ولا جدال فى وفرة الحياة وروعها وقوتها ، تلك الحياة التى تنتظر أبنائنا على هذه الأرض الموعودة . هذا إن بلغنا



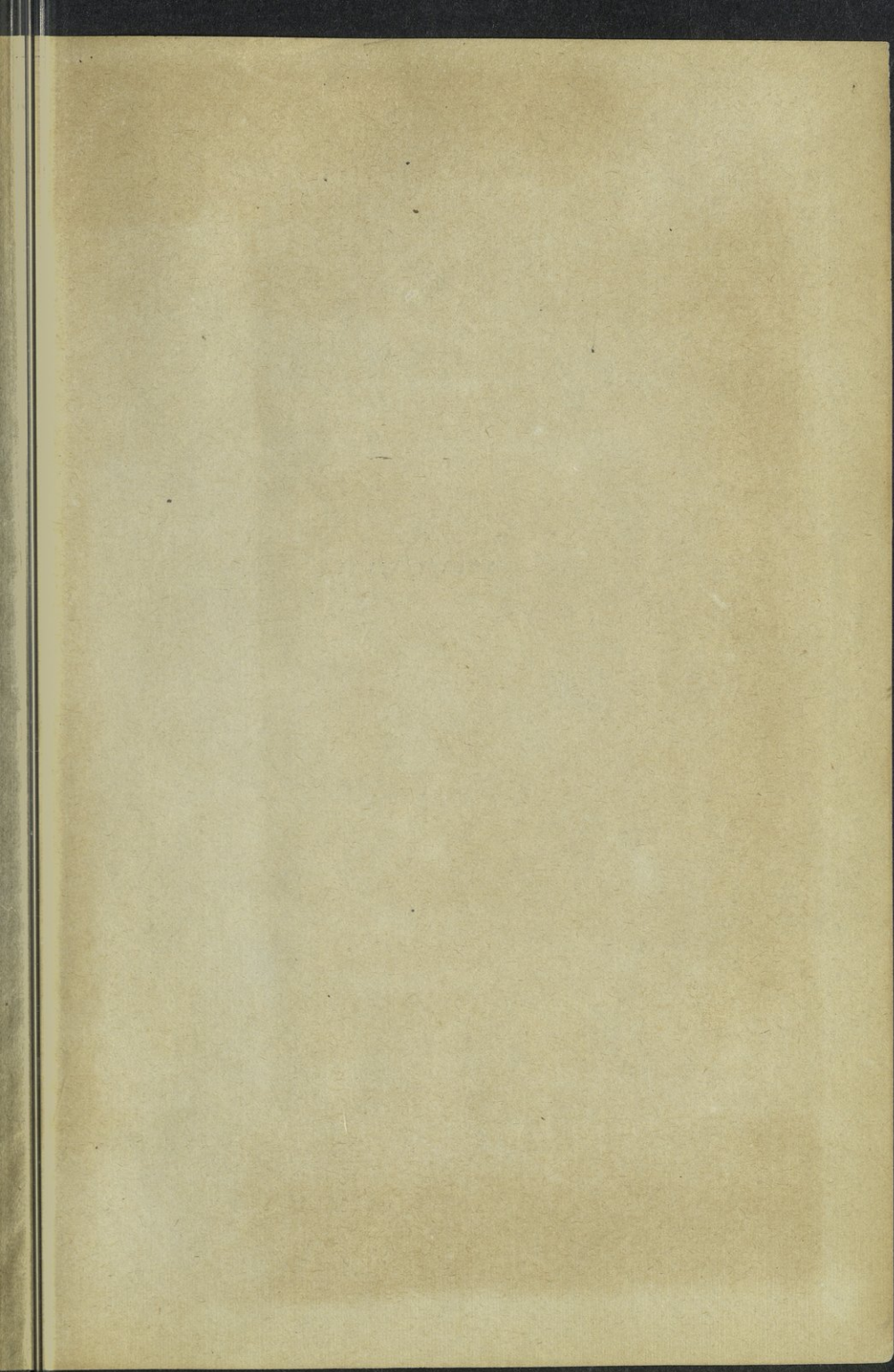
تلك الأرض أما إن قصرنا عنها فلا جدال بعدئذ في انحطاطهم وتعاستهم .  
ليس في هذا الكتاب شيء جديد حق الجدة . ولكن به نوعاً من  
الجرأة في ضم الحقائق التي تجنب كثير من الناس جمعها حتى لا تكون  
مزيجاً منفجراً . ولعلها تنفجر . لعلها تخترق بعض الأسوار العقلية العنيدة  
ورغم إمكان هذا الانفجار ، أو ضرورة هذا الانفجار ، فإن هذا الكتاب  
لا يعدو أن يكون جمعاً وهضمًا وتشجيعاً للأفكار السائدة الآن ، والتي  
ما تزال مترددة رغم ذلك . إنه تقرير واضح للثورة التي يوجه الفكر  
إليها مزيداً من العقول حيناً بعد حين ، وإن ظلوا عاجزين عن الاضطلاع  
بها . وقد أكدت خطورة الحال في « مصير الإنسان » ، وجمعت هنا  
الأشياء التي يستطيعون أن يعملوها ، والتي يحتاجون إلى أن يعملوها . فخير  
لهم أن يجمعوا عزيمتهم .



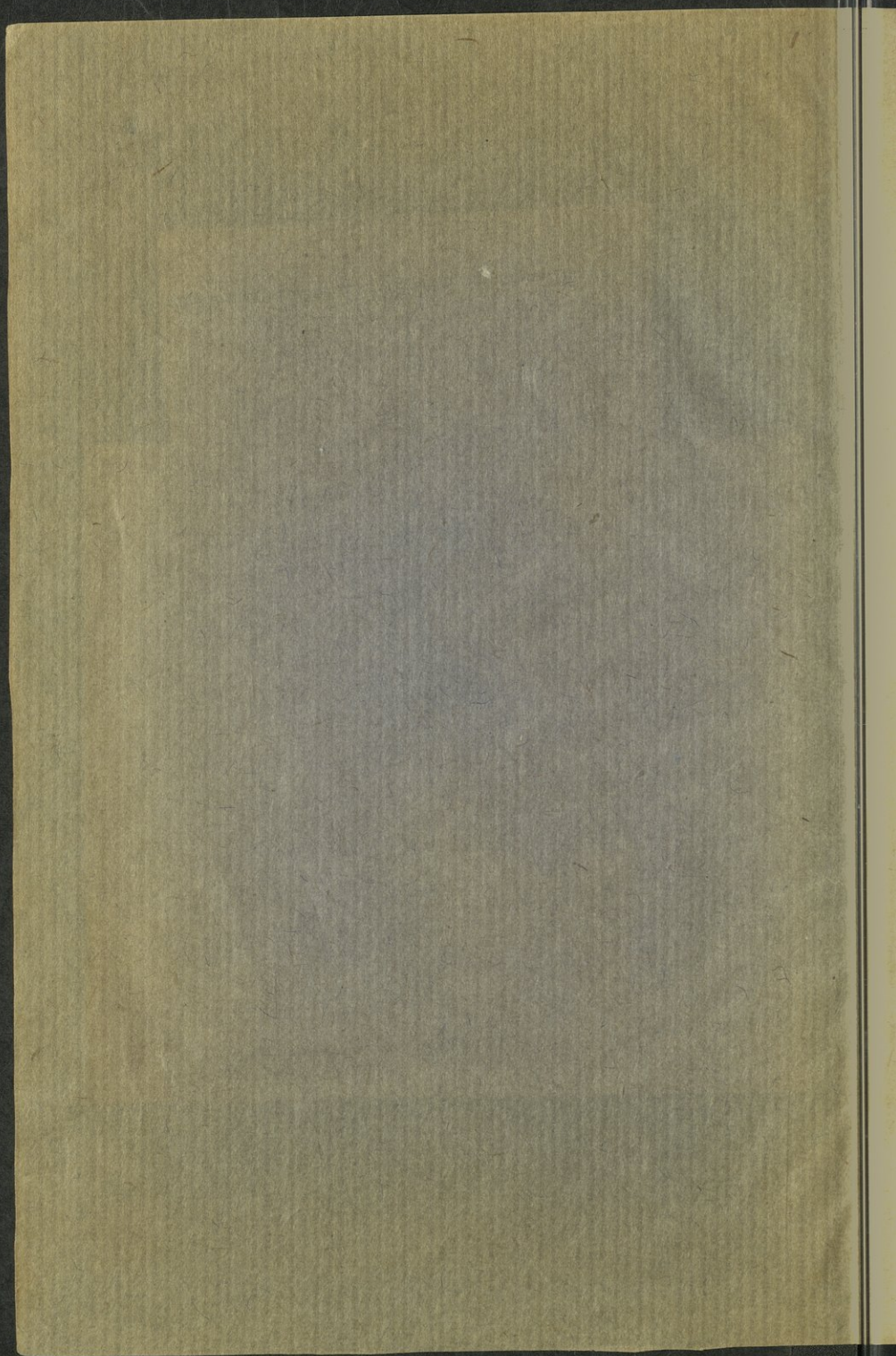


۱۹۴۶/۲/۱/۱۶۴۸











320.15:W45aA

ولز،

عالم الغد .

320.15  
W45aA

SAFETY LIB.

17 AUG 1976



320.15:W45aA:c.1

ولز، هيربرت جورج

عالم الغد

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01013662

American University of Beirut



~~321.09~~

~~1866~~

General Library



320.15  
W45aA  
C.1